سقف لن يكتسب صفة الأفق

مقالات في الفكر والأدب والسياسة

2002 - 2010

جعفر الجمري

إصدارات «الوسط»
٢٠١١

سقف لن يكتسب صفة الأفق

مقالات في الفكر والأدب والسياسة

2002 - 2010

المقالات نشرت في صحيفة «الوسط» في الفترة مابين 2002 و 2010

جعفر الجمري

إصدارات «الوسط»
٢٠١١

المؤلف: جعفر الجمري
الناشر: شركة دار الوسط للنشر والتوزيع، المنامة، مملكة البحرين
رقم الناشر الدولي: ISBN ٩٧٨-٩٩٩٠١-٨٨-١٤-١
رقم الإيداع بإدارة المكتبات العامة: د.ع ٨٨٨٦/٢٠١٠م
©الطبعة الأولى ٢٠١١م

الإهـــداء

إلى امرأة بحجم الحلم

خريطة الكتاب

الإهداء..٣

سقف لن يكتسب صفة الأفق ٨

بين ١١ سبتمبر وبيرل هاربور والمجد الرقمي.........................١٤

محنة المثقف من الـ CIA إلى الجامعات الأميركية......................١٩

تمثال الحرية والنصب على العالم ٢٢

صراخ بتسع درجات على مقياس ريختر ٢٧

مشيخة القبيلة العالمية..٣١

ثقافة الإدراك ٣٣

القطيع ومراعي الدولة العربية ٣٥

التاريخ حين يكون أقل عاطفية ٣٧

الإرتهان إلى التاريخ ٣٩

الحرب ضد التاريخ..٤٢

الصناعات والمعلوماتية وصلابة التاريخ ٤٥
الهندي الأحمر والتشبث بشجرة الزيتون................................ ٤٦
«لوردات الأدغال» ٤٩
درويش والأفق الاستثنائي ٥١
رحيل درويش ومنطق الخرائط ٥٣
كحداء بدوي في وحشة مدى ٥٥
مضاعفة الصدمة ٥٧
الماغوط ودكاكين الأحزاب العربية ٥٨
يتأخر النص فتشعر بنهاية العالم ٦١
لا تنتظروا عروة بن الورد.. ٦٤
أسوار عزل ذوي القربى... ٦٧
ذهنية التفخيخ ٦٩
التمثيل ومراقبة الحياة ٧٢
عبلة كامل... نحاول أن نسترجع ذاكرتنا ٧٥
«الميل الأخضر» ٧٨

عبدالسيد وحزمة من إهمال السرد ٨٣

«كيت كات» والكوميديا الملونة ٨٦

الاجتياح بين الجيوش والشركات العملاقة ٨٩

مصيدة اتفاق التجارة الحرة ٩٢

سقف لن يكتسب صفة الأفق

على المثقف حين يشعر بأنه استنفد مِحَنَه أن يأوي إلى ركن قصي، وأن يعتزل ما يدفعه إلى الحياة بشكل حقيقي، وأن يكون بمعزل عن الذروة في انتباهته، وأن يكون منفصلاً عن ممارسة فعل الكشف، ويحرم من غنيمته المصقولة بالمحن.

المؤسسة في العالم الثالث محاولة لتدجين المثقف، وإصرار على إخضاعه لدرس الطاعة وخلوة القانون؛ إذ تظل تعبيراً عن الحد من الإفراط في الطموح والرؤية، ومحاولة التفكير في ظل «البنود والمواد» والرقابة وقائمة طويلة من الاشتراطات التي تسهم في اختزال حياته، وما يرتبط بتلك الحياة من مباهج الإنجاز والتمرد والخروج على النص؛ لأن الخروج على النص، نص آخر، يقول ما لا يرد على بال المؤسسة، وما لا تقوله المؤسسة هو ما يجب أن يصر المثقف على قوله؛ وإلا أصبح جزءاً من اليافطة ومكتب الاستقبال والنظام الأمني، عدا برامجها المسلوقة! ولأن «النص آلة كسولة... ثمة قارئ يعيد تنشيطها» على حد تعبير الكاتب الإيطالي، إمبرتو إيكو.

كل مؤسسة، انتماء أو شبه انتماء، وفي الحالين معاً، الأمر لا يختلف كثيراً عن موت أو احتضار! لأن المؤسسة في نهاية المطاف لن تتخلى عن سلطتها في سبيل أن يتوغل المثقف في مباهجه وتمرده والمآزق التي يخلفها وراءه في المحيط الذي يحيا فيه. وربما صار مثقف هذا الجزء من العالم أكثر قدرة على كشف الحيل والأحاجي والتوريات المنهجة التي تهدف – فيما تهدف إليه – إلى جعل المثقف آلة استقبال من دون أن يكون له دور أو فعل أو توجيه لما يستقبله؛ الأمر الذي ينتج عنه قوالب ونسخ مكررة للمثقف، والفعل الذي يتم ترشيده من قبل المؤسسة للقيام بدورها والترويج لخطابها خارج أسوارها وجدرانها.

سقف المؤسسة ورأس المثقف

كل مؤسسة، سقف وإن علا، ومثل ذلك السقف لا يمكن أن يكتسب صفة الأفق البعيد، لا يمكن أن يكتسب صفة الفضاء الذي لن يتحقق للمثقف ما دام مستمرئاً لعادة السقف تلك، وما دام مشدوداً لأطريته، وعلى رغم تعدد السُّقف وتباينها في مؤسسة وأخرى؛ إلا أن رأس المثقف لن تكون بمنأى عن الاصطدام بذلك السقف كلما استشعر حاجته للخروج على عادة الاستلاب المتفق عليها ضمنياً بينه وبين المؤسسة، وتلك حقيقة يحاول كثير من المثقفين بذل ما في وسعهم لطرد إلحاحها، وحضورها واعتمالها في نفسياتهم ومداركهم ووعيهم.

ماذا بعد الأنقاض؟

على رغم كونها مؤسسة؛ إلا أن حجم الأنقاض والدمار اللذين تخلفهما وراءها يكاد يكون خارج نطاق التصور. بهذه المفارقة يمكننا أن ننظر إلى المؤسسة، والأنقاض والدمار اللذين أنا بصددهما ليس بالضرورة أن يكونا معاينين، بقدر ما يتجسدان في حجم التفاهة والتدجين اللذين تخلفهما المؤسسة في نفسيات ومدارك ووعي أتباعها. ثم عليك بعد ذلك أن تكون أكثر قدرة على الإمعان في تخيل ما الذي يمكن له أن يقوم فوق تلك الأنقاض؟ تماماً كما ورد على لسان شاغل الناس، وليام شكسبير: «كنت أعرف جيداً ما تهدّم، لكنني لم أعرف أبداً ما الذي سيقوم فوق تلك الأنقاض»!

المؤسسة وتراكم الرفاهية

محن المثقف مركبة، بعضها من صنعه هو، وفي ذلك غبطته، وفي ذلك حافز استمراره في البحث عن محن ينتخبها بدقة وحساسية عالية، فيما المحن الأخرى

التي تكون على حسابه، ويظل يدفع فواتيرها على الدوام، تكون من طرف وإنتاج المؤسسة ورعايتها الدائمة لها في موقف ينم عن أنانية مستشرية هي من نسيجها وبنيتها وتركيبها، مثل تلك المحن ما لم تتراكم فلن تشعر المؤسسة بأي شكل من أشكال رفاهيتها، ولن تكتفي بالشعور ذاك ما لم تجد له موطئ قدم وشواهد على الأرض، فمقابل محن المثقف، ثمة رفاهية وغبطة تراكمها المؤسسة استلاباً ونهباً من دون أن يطرف لها جفن - هذا إذا كان لها جفن أساساً - ويحق لنا بعد ذلك أن نسأل: هل يمكننا أن نطلق على ترحيل تلك المحن إلى المثقف، اسم محن؟ أم نزوع نحو الإمعان في سد الأفق أمامه، ووضع المتاريس في طريقه، وأحياناً تخريب الطرق التي يمر من خلالها، في محاولة للإيقاع به وإرساله إلى حتف يليق بمواهبها في الفتك؟

ما بعد الملح!

كل رفاهية، عيش بأدوات ومفاعيل ما بعد الضروري والملحّ والعاجل، تماماً كما هو الحال مع ما بعد الملح، أن تتجاوز حاسة الذوق للطعم الواحد إلى ألوان وكرنفالات من الطَعُوم المتعددة. وكل محنة بعيداً عن استقبال وعي ومدارك المثقف لها، في الصورة النقيضة، وبتحايل بالغ وبارع، هي على النقيض من الرفاهية، على النقيض من تعدد الطَعُوم، وعلى النقيض من تعدّد أدوات ومفاعيل ما بعد الضروري والملحّ والعاجل.

بيئة طاردة للرفاهية

ثمة أمر لابد من الانتباه إليه، يتركز ويتحدد في المناخ والبيئة اللتين يتجسد فيهما ذلك الصنف من المؤسسات الطاردة للرفاهية والأفق والفضاء والتعدد في

الخيارات، في الوقت الذي سينكشف فيه المناخ والبيئة اللتان تنتجان مثقفاً بهكذا مواصفات مربكة ومُتصرف في إرادتها واتجاهاتها وخياراتها.

مناخ وبيئة تجد مواد عمارتها الخام في قابليات واستعدادات محفزة لها كي تصبح أمراً واقعاً من جهة، وفي موقف يدعو إلى التندّر والاستلقاء من شدة الضحك، وسخرية المواقف، حين تصبح حالاً ضرورية وملحّة، من جهة أخرى. كل ذلك بفعل شروخ في بنية المجتمع عموماً، وبنية المثقف خصوصاً، في ظل بيئة لها مراكز وعظها وإرشادها الداعية إلى الإسكات والإصغاء وتنمية ملكة التلقي والاستقبال، والتحريض على أي محاولة للإغواء أو التشويش على مشروع النفاذ إلى تلك الشروخ. شروخ أصلها الذهاب في الاستبداد حتى النفس الأخير من عمر السلطة - والتي يبدو ألاّ نفس أخيراً لها - مثل ذلك الاستبداد الذي يتحول من سلوك إلى قانون له بنوده ومواده، له أشكال تفريخه في الكثير من مواقع الحياة، وهي مواقع لن تستثني رجل الدين في حلقته، والأكاديمي في قاعة محاضراته، ورجل الأمن في حفظ نظامه الخاص، والأب في دائرة سلطته المطلقة في البيت، تعبيراً عن حال تعويض عن القمع في الخارج، وتعويضاً عن إرادته وخياراته المصادرة، والتفاتاته المتوجسة التي لا حصر لها كلما تراءى له شبح السلطة في الخارج.

الخيال والتدرّج

تنمو المؤسسة بتدرّج وتراتبية، ولن يكون المثقف على مبعدة من ذلك؛ إذ هو في الصميم من حركيتهما وترتيبهما وتوافقهما؛ بل يمكن القول، إن التدرّج والتراتبية يضعان في حسابهما - على أسوأ تقدير - تحييد المثقف، وتركه في مهب انشغالات بالجملة كيما يتاح لها الوقت الذي تدشن فيه نتائج ومحصلات ذلك

التدرّج والتراتبية.

يحضر سلفادور دالي في هكذا توصيف ينم عن الضد مما تحاول المؤسسة تحقيقه أو الوصول إليه. خروج واعٍ يمكن لغوايته أن يسبِّب إرباكاً في محيط ملاييني، إذا ما توافرت له فرص الخروجِ على المؤسسات: «لم يحدث أبداً أن رفضت لخيالي الخصب المطواع، إجراءات البحث الأشدّ صرامة، فهي تضفي على اختلالي الوراثي قليلاً من الصلابة».

مثل ذلك الخيال هو على النقيض من التدرّج والتراتبية، وعلى النقيض من السقف، وعلى النقيض من التأطير، يخلّف وراءه دماره المنتج والفاعل، فيما هو مدرك وواعٍ للتساؤلات التي تنشأ وتدفع إلى التفكير في «ما الذي سيقوم فوق تلك الأنقاضِ؟».

الكتابة باليد اليسرى!

عودة إلى المثقف الذي يراد له أن يكتب باليد اليسرى (وهو تعبير يعني باللغة الإيطالية، أن ما يتم كتابته يشكل مرتبة ثانية في اهتمامات الكاتب)، ولو قدّر لتلك المؤسسة أن تحيل معظم الكتّاب والمثقفين إلى الكتابة باليد اليسرى، فلن تتردد في ذلك، بحيث يأتي كل ما ينتج عنهم في المرتبة العاشرة من اهتماماتهم؛ ما يجعل ذلك النتاج يصب في نهاية المطاف في صالح توجهات المؤسسة وأهدافها.

استدراج إيكو

يمكن تلمّس جانب مما ذهبنا إليه سابقاً في عدد من كتب الروائي والسوسيولوجي الإيطالي إمبرتو إيكو: «منمنمات»، «رؤية نهاية العالم»، و«اسم الوردة». في «رؤية

نهاية العالم»، ثمة حديث عن الطرائق الشاذة، وعن الحركات الألفية في التاريخ، وكلها تصب في موضوعة الجنوح والشهوة اللتين هما من صميم ممارسة وذهنية المؤسسة/السلطة وتوجهاتها.

استدرج إيكو من خلال حوارات مع موسيقيين أمثال: بريو، وهنري بوسور، في نهاية العام ١٩٥٩ - ١٩٦٢، إلى مساحة من كشف نقاء الفضاء، ووضوح الأفق الذي يتحرك من خلاله المثقف بعيداً عن المؤسسة بمعناها السلطوي البغيض. الأمر ليس اكتشافاً بقدر ما هو إمعان في تأكيد روعة المحصلات ورصانتها حين تتم بعيداً عن جُدُر وأسوار وسُقُف المؤسسات.

بين ١١ سبتمبر و«بيرل هاربور» والمجد الرقمي

الكتابة عن ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١، كتابة عن متغيّر عالمي طال السياسة والاقتصاد والاجتماع والسلوك. وفي نهاية المطاف، الثقافة في بعدها الشمولي؛ بل وأكثر من ذلك. طال ذلك المتغير النوايا. ليس ذلك جنوحاً على مستوى المجاز.

منذ ١١ سبتمبر، والولايات المتحدة الأميركية تمعن في تكريس سياسة محاكمة نوايا العالم؛ بل طالت تلك المحاكمات بعض الأصدقاء التاريخيين؛ وخصوصاً مع تدشين «الكتاب الأسود» بمضامينه الغائمة فيما يسمى «الحرب على الإرهاب».

بعد ١١ سبتمبر لم يتغير العالم. ما حدث نتيجة طبيعية لسياسات صلف وانحياز للخروج على القانون وتواطؤ عميق على زعزعة الاستقرار، وتدشين التدخلات، والكيل بأكثر من مكيال. العالم لم يتغير، ولكن الولايات المتحدة هي التي أرادت للعالم أن يتغير وفق منهجية وهوس عصابات البيت الأبيض، لا صقورها. الصقور مخلوقات نبيلة. وحتى شراستها لا تبرز للشراسة ذاتها. شراسة في حدها الطبيعي والضروري والمعقول.

تغيرت صورة هذا الكوكب كثيراً بعد غزوتي نيويورك وواشنطن. لا جهة تدّعي شيئاً من الاتزان في مداركها وعقلها، أو حتى عواطفها تصطف مع ما حدث أو مع الذين كانوا من ورائه. لأنه لا أحد يتمنى أن تتغير صورة هذا الكوكب إلى الشّكل الممعن في قتامته وتوجسه وشكه. كل منا يتمنى تغير ذلك الشكل في انحياز طبيعي وضروري إلى حال السلم التي افتقدها لعقود كلما طل هوس الهيمنة برأسه، وكلما ذهب الطموح بعيداً، ذلك الذي يبدأ بغزو الأسواق ولا ينتهي بالاحتلال والعربدة.

الإمعان في الحداثة ونسيان التاريخ

التاريخ درس منسي. هو المادة الأكثر حضوراً وتكراراً في بعض صورها، حاضراً ومستقبلاً؛ إلا أن الاستفادة منها نادرة؛ إن لم تكن معدومة. وكلما أمعنت الدول في حداثتها وتوغلها في الذهاب إلى المستقبل، ركنت التاريخ جانباً. الماضي شبه نكرة، فيما الحاضر في طريقه إلى تلك النكرة.

الدُّول المستعمرة لفرط سكرتها ونشوتها ببسط النفوذ والهيمنة تتلقى ضربات موجعة لحظة السّكرة تلك. ربما تفيق منها. ذلك صحيح؛ لكنها تفيق لكي تعاود السّكرة والنّشوة وبسط النفوذ والهيمنة ذاتها. والضربات الموجعة ذاتها في استمرار لا ينقطع، طالما أن الاحتلال وفرض الإرادة حاضران.

الدوُّل المصابة بهوس الهيمنة لا تتعلم من أخطائها، على رغم الاستراتيجيات الضخمة التي ترصد لها أموال هائلة، لكن استراتيجيات الاستفادة من الدرس والأخطاء تكاد تكون شبحاً، أو كائناً لا وجود له.

سبق غزوتي نيويورك وواشنطن بعقود - طالما أن الأداة واحدة (الطائرات) - حادث أكثر هولاً في ٧ ديسمبر/كانون الأول العام ١٩٤١. أكثرنا يتذكر (قراءة) الهجوم الياباني على «بيرل هاربور». طير أبابيل من حديد انطلقت انتحاراً من قواعدها ليسفر الهجوم عن مقتل ٢٤٠٣ من الجنود الأميركيين و٦٨ من المدنيين وإغراق أو إتلاف ١٩ سفينة وبارجة حربية وتدمير ١٨٨ طائرة.

الفرق يومها، أن التكنولوجيا لم تكُ في ذروتها. لم تكُ في مجدها الرقمي! ولم تكُ الأصولية الإسلامية وقتها حاضرة في كادر الحدث الدولي.

المسلمون وقتها كانوا منكفئين تسلحاً بالدعاء كي لا يطالهم الخسف القادم من وراء الحدود. كان هتلر وموسوليني وهيروهيتو في الذّروة من الأصولية الكونية.

الأصولية التي تم نسيانها - إلا قليلاً - في ذاكرة الغرب، ليس بعد بزوغ خسف القاعدة؛ بل قبل ذلك بزمن طويل. تم نسيانها مع توقف مدافع الحرب العالمية الثانية، والخسف النووي في هيروشيما ونغازاكي في اليابان، وتقسيم الحدود والمغانم، وبروز المعسكر الشرقي كعدو قائم وماثل ووحيد وضروري.

الأصولية الإسلامية والدُّخول في الكادر

في الحرب الباردة؛ بل في ذروتها؛ وخصوصاً مع الاجتياح السوفياتي لأفغانستان في العام ١٩٧٩، احتل الأصوليون الإسلاميون المشهد بعد **٣٣** عاماً من غيابهم عن كادر الحدث الدولي. هذه المرة باعتبارهم منسجمين - ضمن وجهة نظر المعسكر الغربي - مع تطلعاته وتوجهاته.

لعبت عوائد النفط، وسياسات الترهيب أحياناً، والإملاء، والتوجيه أحياناً أخرى، دورها في هذه الفسيفساء الغريبة من التلاقي في المصالح والأهداف. الأصوليون في تزمتهم، والعلمانيون المسيحيون في انفتاحهم، مادامت المصالح هي المحور. أقول لعبت عوائد النفط دوراً كبيراً في حسم الصراع بين معسكر «الشر» (الاتحاد السوفياتي السابق) ومعسكر «الخير» (أميركا ومن ورائها الغرب والأصولية الإسلامية في أفغانستان) في توقيت زماني ومكاني يبعث على السخرية؛ لأن أصولية إسلامية صحا العالم على دويها قريباً من حدود أفغانستان، بسقوط أبشع نظام دكتاتوري شمولي في المنطقة (شاه إيران) تمت مواجهتها وحصارها بإجماع شبه دولي. الفرق أن زمانها ومكانها لم يكونا منسجمين مع أجندة الولايات المتحدة الأميركية، والمعسكر الغربي عموماً.

غابة الكاميرات وسوق المراقبة

عودة إلى المتغير العالمي الذي أحدثته غزوتا نيويورك وواشنطن في ١١ سبتمبر ٢٠٠١. عودة إلى المتغير الذي طال النوايا. تفتقت عن الغزوتين وتكريس محاكمة النوايا متغيرات على مستوى الكشف العلمي والتكنولوجي: البصمة الالكترونية... بصمة العين، ومسح الجسد؛ لكن أكثر ما يمكن تلمسه من متغيرات في هذا الصدد هو غابة الكاميرات التي زحفت واحتلت العواصم والمدن الغربية الكبرى.

كاميرات تحصي على الناس انفعالاتهم وعواطفهم وحتى سكناتهم. علينا أن نعرف فقط أن بريطانيا وحدها التي لم تطلها يد الإرهابيين إلا بعد سنوات من غزوتي نيويورك وواشنطن، تحيط بمدنها الرئيسية أكثر من ٤ ملايين كاميرا للمراقبة في الأماكن العامة (مصارف، دور سينما، محلات، محطات، مبان رسمية، شوارع رئيسية، وميادين) و«تم تشبيه شبكات الكاميرات في بريطانيا بـ (الخدمة الخامسة ذات المنفعة العامة) كالغاز والكهرباء ومياه الشفة، والاتصالات» (نويه لوبلان، صحافي فرنسي. «الكاميرات قصيرة النظر»).

ذلك في بريطانيا. في الولايات المتحدة يدور الحديث عن عشرات الملايين من الكاميرات في مدينتي نيويورك وواشنطن وحدهما.

ثمة اليوم سوق ضخمة للمراقبة تتولاها الكاميرات والدوائر المغلقة تجاوزت المجمعات التجارية ومترو الأنفاق ودور السينما. سوق ضخمة وصل حجمها إلى أكثر من ٣٥ مليار دولار سنوياً، وهي في طريقها إلى النمو؛ لكن لم يلتفت كثيرون إلى أن تلك الكاميرات لم تمنع حوادث مدريد ولندن وغيرهما من العواصم. هل لأن تلك الكاميرات «قصيرة نظر» بحسب تعبير نويه لوبلان؟ أم أن الساسة الذين أوجدوا نمو تلك السوق عديمو نظر؟ سؤال مشروع أليس كذلك؟

اقتصاد السوق قبل ١١ سبتمبر، ليس هو بعده. بات الهاجس الأمني هو المفتاح لدخول السوق والهيمنة عليها. لم يعد حجمها هو الهاجس الرئيس كما كان. المعايير والمقاييس الديمقراطية لم تعد سبباً للرضى عن نظام هنا والسخط على نظام هناك، على رغم الكذبة الكبرى التي سوّقتها أميركا، وعلى رغم التخبط في مشروعات مثل «الشرق الأوسط الكبير»، و«الشرق الأوسط الجديد»، فثمة أنظمة دخلت الأجندة الأميركية بعد ١١ سبتمبر على رغم سجلِّها الأسود في حقوق الإنسان، وعلى رغم انتهاكاتها المستمرة وفسادها المستشري في ذروة تسويق المشروع الأميركي وما بعده، في موقف إنعاش ومَدَد لتلك الأنظمة.

في ظل حقيقة المتغير العالمي الذي طال مجالات عدة بعد ١١ سبتمبر، ثمة متغير في التخبط الأميركي في الاستفادة من درس التاريخ الذي يبدو أنه سيظل منسياً. لا ذاكرة للتاريخ في السياسة الأميركية منذ فيتنام وليس انتهاءً بالعراق وأفغانستان.

١٦ سبتمبر ٢٠٠٨

محنة المثقف من الـ «سي آي آيه» إلى الجامعات الأميركية

هل يمكننا القول، إن حدث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول ٢٠٠١، شكل قناعة في الذهنية السياسية الأميركية المتطرفة بأنه لا يقل خطراً وتهديداً للأمن القومي الأميركي ومن ثم العالمي عن الخطر والتهديد الذي مثله فوهرر ألمانيا (هتلر)؟

يبدو أن الأمر يتجاوز ذلك بكثير، ظلت فيه أميركا بمنأى عن التهديد الألماني ودخلت الحرب من باب إعادة ترتيب المصالح والخرائط وإعادة اقتسام العالم، في الوقت الذي تدخل أميركا في حربها على مايسمى بالإرهاب بعد أن فوجئت بصفعة تعد بمثابة الزلزال، إذا ما قيست بهزة «بيرل هاربور».

مخطط ترتيب الخرائط شرعت فيه أميركا قبل حدث ١١ سبتمبر، وكان يمضي قدماً ويؤتي ثماره تبعاً للأحداث الدولية التي تبرز هنا وتختفي هناك، وربما بدأ ذلك المخطط مع بدء الحرب العراقية الإيرانية على وجه التحديد، لكن المفارقة – في بلد ضليع في الديمقراطية وحقوق الإنسان – تكمن في أن الهاجس الأمني بعد الحدث/الزلزال أخذ منحىً منحرفاً وغير أخلاقي طال شرائح وقطاعات عديدة في المجتمع الأميركي، بحيث امتد ذلك الهاجس ليطال آخر القلاع التي راهن الكثيرون على صمودها أمام العقلية الإستخباراتية التي سادت معظم الأجهزة والمصالح الأميركية، وأعني بها الجامعات الأميركية. وليس من المبالغة القول، إن عدداً كبيراً من تلك الجامعات استدرج ليكون جزءاً من ذلك الهاجس عبر ممارسات ستظل وصمة عار في جبينها لردح من الزمن. آخر تلك الجامعات «جورج تاون» وليس آخر ضحاياها البروفيسور العربي المولد، الأميركي الجنسية،

هشام شرابي، وهو واحد من الضمائر الحية التي نافحت عن القضية الفلسطينية خصوصاً والقضايا العربية عموماً. فالحملة الشرسة التي يتعرض لها الرجل أسهمت في قيامها صحيفة عربية تصدر بالإنجليزية في بلد عربي (لبنان) اجتزأت فقرات من ردوده على أسئلة عدد من الطلبة فيما يتعلق بالمخاوف والنتائج التي ستتمخض عن الضربة المحتملة على العراق؛ إذ ركز في بعض ردوده على إبراز التأثر الكبير الذي يمارسه المتطرفون المؤيدون لليكود الذين يشغلون مناصب رفيعة في الإدارة الأميركية وينهمكون في خلق حال حرب في المنطقة، وهو موقف ليس جديداً أو غير مألوف فقد أورده باحثون آخرون بينهم أميركيون وإسرائيليون وقد وجد البعض هذا الموقف مزعجاً.

إن الولايات المتحدة تختط منهجاً غير معهود في حسمها وتعاطيها مع القضايا التي ترى فيها إضراراً بمصالحها وتظل كبرى خطاياها وأخطائها وكوارثها في العالم تعهدها اللامحدود بتكثيف المتاريس والدفاعات لدولة طارئة (إسرائيل) وشعب لا علاقة له بنسيج المنطقة التي توافد إليها من جهات العالم الأربع. وفي ظل هكذا واقع سيكون للضربة الأميركية نتائج سترتد عليها بالدرجة الأولى ولن يوفر متراً من أمان لدولة مصطنعة وشعب مخترع في بقعة لشعوبها علاقة مع تكون الأرض واصطراع الطبيعة.

لن نحاكم نوايا الصحيفة فيما اقترفته، وشرابي بكل تاريخه المشرّف ليس بحاجة لمقالة هنا أو ندوة هناك لتؤكد شرف مواقفه وبياضها، لكن المخجل والمؤسف بحق هو المواقف السلبية والمتفرجة التي أبدتها الجامعات العربية والإسلامية سواء كانت ضمن حدودها أو خارج تلك الحدود؛ إذ لم تبدِ تلك الجامعات أي موقف يسجل لصالح أي منها.

شرابي من جهته بعث برسالة إلى رئيس الجامعة، جون دي غيوبا، يرد فيها على

الإتهامات الموجهة إليه بمعاداة السامية، وعلى رغم تضامن عدد من أساتذة الجامعة وعلى رأسهم أستاذ التاريخ، جيمس كولينز، وبعض طلاب شرابي السابقين؛ إلا أن الجامعة لم تحرك ساكناً تجاه تلك الحملة التي صعدتها في أميركا صحيفة «هويا»، إضافة إلى الحاخام وايت.

لم تعد محنة مثقف بقدر ما هي أزمة ضمير عالمي يتحرك ويتنفس وفقاً لهاجس أمني تحول إلى مرض مستعص.

١٤ ديسمبر ٢٠٠٩

تمثال الحرية والنَصْبُ على العالم

حضرة؛ بل حضرات عربية مفتوحة على الهزائم، وجلسات التوقيع على بياض، وحفلات الكوكتيل على مشاهد من الفظاعات الأميركية في أكثر من قُطر ومدينة؛ بل حارة، من الفلوجة الى خوست التي رفع جل قادتها ملابسهم الداخلية رايات بيضاء في ظل عصفِ وخسفِ المحتل الكريه.

لا نحتاج إلى استعراض بلاغات مصطنعة لوصف اليوم «الأول» لليوم «الآخر»، كل ما نحتاجه هو أن نقرأ ونرى ونشم ونلمس ونتأمل بوعي لا يتم حقنه بأي زيف في المشهد الدولي، في ظل دولة وصلت إلى شبه الذروة من مدنيتها، فيما هي في الحضيض من بهيميّتها وتعاملها مع الإنسان في العالم الثالث كحال طارئة وتهديد لذلك المنجز.

حين تصل الولايات المتحدة الأميركية إلى تلك القناعة المرتجلة بتهديد الإنسان في العالم الثالث لمنجزها المديني؛ فيما هي تمعن وتعمّق مخططها «التجهيلي» لوأد رؤيته ومحاولاته وقراءاته لمجمل سياساتها، نصل إلى قناعة أنها دولة في الصميم من التهديد لأي منجز حضاري إنساني قائم، وأي منجز حضاري سيقدّر له أن يقوم.

حق البصق على ناطحات السحاب

المدنيّة تحققت من دون منازع لدى أميركا؛ لكنها تظل وفي العمق من تلك المدنيّة والإمكانات الخرافية على مستوى التكنولوجيا، في الحضيض من «التحضّر»، فالحضارة تضع الإنسان على رأس أولوياتها، وتتيح له مساحة من الرفض ورفع الصوت والاحتجاج والبصق على ناطحات السحاب، والرجل الآلي، وسيارت

الفورد؛ بل وحتى تمثال الحرية ليس كونه «نُصُبا»؛ بل لكونه تحول إلى «نَصْب» ليس على الذين ابتلعوا الطعم قبل الميل الأول للوصول إلى الحلم الأميركي؛ بل في العام ١٩٤٨ في حادثين لن يتم محوهما ولو أعلن رئيس أميركي في العام ٣٥٠٠ للميلاد إسلامه أمام شيخ الأزهر!

تناسل الفخاخ

أي أفق متحضّر؛ أو لنقل متمدّن ذاك الذي يخال المتسنّم ذروته أنه البارئ والمصوّر والمعزّ والمذلّ؟ أفق أول سماته البارود، وآخر سماته اللحود في بيئة هي في النهاية من تناسل الفخاخ.

يا الله كم الإنسان عرضة للغطرسة حين تذهب أميركا إلى نومها وقد حيّدت حتى الكوابيس!

طرزان المعدّل وراثياً

كأن الأبراج اختزال للشوك، كأن الحفاوة ذهاب آخر نحو استجواب يقيم للعين واليأس والأمل والأنفاس والمشاعر والنوايا بصماتها الفاقعة الفاضحة أمام شاشات تنتظر مثل تلك الفرص التي تؤكد أنها في المتن من القيمة الكبرى للإنسان الخاص بها، إنسان الفضاء (السوبرمان)، وإنسان الغاب المعدّل وراثياً وأخلاقياً (طرزان)، وإنسان المواجهات غير المتكافئة (رامبو)، وإنسان استغلال الفرص وشيوع النبوءات في ظل شبح من التهديدات المصطنعة (جورج دبليو بوش)!

استمالة الطمأنينات

إنْ لم تنتبك الريبة في ظل كل ذلك، ستكون بين اثنين: إما أن تكون في الصميم من تلك المؤامرة، وإما أن تكون في الصميم من الغيبوبة، وفي الحالين معاً أنت متورط بالضلوع في مهنة المؤامرة تلك!

هل علينا أن نستميل السَحَرَةَ والخرائطَ والأدعيةَ والطمأنيناتِ الفارغةَ لنشعر أننا جزء من تلك المهزلة التي تشهر البسالات والفتن والفحولات وآخر شارات الزوال؟ لنثبت أننا جزء لا يتجزأ من حنطة البشر، وعرقهم، وطقسهم المتقلّب، وأراملهم، ومدنهم الموصدة، ورخامهم الذليل، وقناديلهم الشاحبة؟

خسفٌ في أناقة الهندسة

عن أي أفق نتحدث؟ وبأي مِلاك أخلاقي نحن مشغولون؟ نبدو نماذج أو لنقل دروساً للهشاشة في ظل سيادة ضلال تُتوّج فيه الكلاب الضالّة، وفي ظل كلام هو أكبر بكثير من حناجر هي دون سمّ الخياط، وفي ظل عصيان ذاتي أمام هول ودنس يستفز الملائكة وهي ضالعة في الجبْر! هل نملك خيارات إزاء خسف متلبّس بأناقة الهندسة؟ وإزاء فَلَتَان يحضرنا في مسوح الشرائع؟ وإزاء خرافات متنكرة في الواقعي من الإهانة؟

أفق مليء بالرفوش

عن أي أفق نتحدث؟ أفق يحول بينك وبين «التمضمض بعد جرعات الأسيد». يحول بينك وبين التنحي جانباً ليستقر الرصاص في مكانه الأثير. يحول بينك وبين الخروج على النسيان.

أفق مليء بالرفوش. ما الذي تخاله سيردم هناك سوى صوتك الذي لم يجد له مسارب سوى هذا المكان الذي تظنه عصيّاً على بلوغ أعدائك، فيما هو يُطفأ ويُشعل بكبسة زر!

مجزرة المصادفات

عن أية ذاكرة نتحدث هنا؟ هل نجازف بالقليل المتأخر من الوقت كي نلحق بما تم؟

انحاز القطيع الأصولي الأميركي لزوال الطمأنينة من العالم، انحاز لمجزرة المصادفات والمؤامرات، انحاز للبذخ السري في لعبة السياسة، انحاز لمجازفة لن تبقي ولن تذر، وليس بالضرورة الآن، ربما في العام ٣٥٠٠ للميلاد حين يعلن رئيس أميركي أنه موسى المخلّص وأمام حاخام يتاجر في الأعضاء البشرية!

بين السنترال بارك والكابوس الأميركي

تتذكر معهد ماسوشوسيتس، وجامعة جنوب كاليفورنيا، وهارفارد، وهيمنغواى، وآرثر ميلر، ومتحف نيويورك، وأديسون، وآن سيكستون، ورياضة الاقتراع، ومالكولم إكس، ومارتن لوثر كنغ، ورواية الجذور لـهيلي، وجيسي جاكسون، ونيل آرمسترونغ، وسنترال بارك، وفرانكلين، وإدوارد سعيد، ونعوم تشومسكي، وعزرا باوند، وتوم هانكس، وآخرين، عدا برج التجارة العالمي الذي كان شارة لانقلاب الحلم الأميركي إلى كابوس امتد لليل العالم!

لم يعد لغزاً أو عروة للمؤامرات ما يحاك في النهار الأميركي، في سبيل تأبيد ليل الآخر، ليلنا المضاء بالأعراس المؤجلة، وشح السهر، وانهمار مواسم الدفن،

وصلوات الخوف، والقراءات المتعجّلة، والمصابيح الغابرة.

نبوءة الغلوكوز

تزدهر النبوءات حين تتفشى الأصوليات، التي لم يأتِ جلها على متن الصليب؛ بل على متن ناقلة نفط، أو حقول قيد الاكتشاف، أو حاملة طائرات، أو على متن صناعة الدمار اليومي. والنبوءات الصادرة عن محيط بهذه المواصفات والامكانات لا تبشّر بالمخلّص الديني بقدر ما تبشّر بالمخلّص السياسي أو «شايلوك» من نوع آخر، وفق أجندة دولية تتجاوز المكان الخاص لتنطلق في البشارة من نيويورك إلى هيرات، بعقوبة، دير الزور، مشهد، النبطية، وصولاً إلى مدافن سار!

ولن تكون نبوءة أسلحة الدمار الشامل في العراق آخرها. ألم تكشف لنا النبوءة تلك عن سر امتلاك ليبيا لأسلحة دمار شامل، ولن تكون مفاجأة لو كشفت ذات النبوءة عن حقيقة مضادة تبعث على التندّر مفادها: أن ما تم اكتشافه لا يعدو كونه براميل من (الغلوكوز)! وبالمفهوم الأصولي الأميركي يحق للنبوءة أن تستدرك أو تصحح نصها المتحرك متى وأنّى شاءت!

٢٢ أبريل ٢٠٠٦

صراخ بتسع درجات على مقياس ريختر

ليس شرطاً أن يكون العقد الأول من هذا القرن، عقد حروب، سيكون بلاشك عقد وهم وتراكم مظالم، ولن يتأتيا إلا بفعل حروب وضعت أوزارها قبل أو مع بدايته.

لا نريد أن نسرف في اليأس، ولكننا لا نريد أيضاً أن نسرف في الأمل، فالنتائج تكاد تكون واحدة من حيث المساحات الفارغة والمعلقة التي تجد فيها الشعوب نفسها مرتهنة لحال من الصدمة. صدمة اليأس، وصدمة الأمل.

سيكون عقد وهم لأن المؤثرات والخطاب الذي يقود تلك المؤثرات أكثر بلاغة من الفقر وتفشي الأمراض والفساد وانتهاك حقوق الإنسان والخزانات الخاوية على احتياطها من العملات الصعبة. أكثر من التلويح بإسقاط طاغية، وحين يتم ذلك يصحو الناس على موجات من الطغيان تكاد تكون أمامه «موجات المد» «تسونامي» التي ضربت جنوب وشرق آسيا، رشفة فنجان مقارنة بمحيط في الذروة من غضبه وانفعاله.

سيكون عقد وهم، لأن مفتاح السياسة بالنسبة إلى الأفراد والدول لن يكون صناديق اقتراع، وحملات انتخابية تبرئ الأكمه والأبرص؛ بل سيكون مفتاحها إعلام طاغ يحيل من اليأس أملاً ومن الأمل يأساً، ومن الديجور نهاراً. بمعنى آخر، إعلام يمكنه أن يمرر قناعات - بإمكانات الديجيتال - بقيمومة الابن على الأب، والزوجة على الزوج، والظالم على المظلوم، والقوي على الضعيف بغض النظر عن مستوى النزاهة في الأمر. وسيكون عقد مظالم، لأن الوهم بطبيعته حين يسود تسود معه مظالم هي نتاج وثمرة للانعزال والانفصال عن الإدراك والتعاطي المنطقي والأخلاقي مع ما يعتري المجتمعات والأفراد

من صدمات وأوبئة وخلل ينتاب بنيتها الأخلاقية والاجتماعية والتربوية، وهو خلل معد له سلفاً يسعى إلى الاستفراد بالفضيلة - ضمن رؤيته - والأخلاق والوجود وكل ما ينضوي تحت تلك العناوين المفتوحة على الفهم والتفسير والنظر.

قرن مظالم لأن التكدس البشري سينظر إليه على أنه مجرد أرقام يجب ضخها وإبرازها، فيما يحيل تلك المظالم إلى رد لها، ويحيل الوهم إلى واقع ماثل لا يقبل الشك.

وظيفة الطائرة والدبابة وحاملة الطائرات، هي إعادة الجنة إلى سيرتها الأولى... نيران يعقبها دخان تعقبه حال بدائية للأرض وما عليها. لن يكون هنالك إعمار للأرض في ظل بطش الآلة وسكرة إمكاناتها، والورود التي تفشت في بغداد كانت بمثابة ورود يحملها الواحد منا لتحية عزيز لم يجف ماء قبره بعد. كأنها ورود تسبق لحظات التشييع والصلاة والمواراة، عدا لحظات تركها هناك على شاهد قبر مازالت تفوح منه كلمات لم يتمكن صاحبها من التلفظ بها قبل أن يوارى التراب.

الآلة بلا فم وبلا أنياب يمكنها أن تسهم في إعمار العالم، ومتى ما تأتى لها الفم والأنياب تظل مشروع خسف لا إعمار. مشروع إعادة الإنسان إلى كهفه الأول وتوتره الأول وبؤسه النموذجي والاستثنائي. تظل مشروع مقابر ومآتم وصلوات جنازات ونعياً مفتوحاً على التاريخ والجغرافيا.

وحده الوهم القادر على تعطيل ملكات التاريخ. ووحده القادر على تحريف وتزييف الجغرافيا. ووحده القادر على صنع آلهة من عدم، بل آلهة من فجور وخلاعة! وذلك هو تماماً ما يتم تكريسه في المشهد الدولي الذي تمارس أميركا

خلاعتها و«إكسير» وهمها من خلاله؛ وإلا ما الذي يعنيه لنا نحن المصابين بفقر دم الحرية أن نتلقى ألف بائها من الـ F١٦ وB٥٢ والتوماهوك وطائرات ستيليث؟ لدينا من الموت ما يكفي لأن نترك هذا الكوكب يفوح برائحة الجثث والدم ويكتظ بطوابير المعزين من الكواكب الأخرى. هل نحن بحاجة إلى واقع أصبح وهماً أكثر من وهم أصبح واقعاً؟ ذلك فقط ما يملكه واقع آلة الدمار التي بشرتنا بتعلم لغات أربع، فيما نحن نكاد لا نحسن التشهد قبل الرمق الأخير من الحياة!

يمكنني أن أتفهم أن أميركا حريصة على أن ينال الإنسان خارج جغرافيتها بعضاً من حقه في الصراخ؛ ولكنها بآلتها الجهنمية تدفعنا إلى صراخ يكاد يعادل زلزالاً يصل إلى تسع درجات بمقياس ريختر!

يمكنني أن أتفهم حرص أميركا الظاهر على أن تتاح لنا مساحة من هذيان حر، ولكنها تدفعنا عبر صناديق اقتراعها الملغمة بخطاب إعلامي مهووس بالهيمنة إلى مصحات عقلية لن نخرج منها إلا قنابل موقوتة أو جثثاً!

يمكنني أن أتفهم حرص أميركا الغبي على منحنا مساحة من حرية، ولكننا لا نريد بهكذا مساحة أن نتحول إلى كلاب ضالة تتعرض لطلقات شرطة البلديات التي ترى فيها تلويثاً لنظافة المدينة!

يمكنني أن أتفهم حرص أميركا المريض على تحويلنا إلى نماذج من عبرة، ولكننا في نهاية المطاف لن نعدم طريقة لتحويلها هي الأخرى إلى كذبة كبرى ستقودنا إلى النار التي نؤمن بها كما نؤمن بالجنة، ولن نكون أغبياء في غفلة من الحس لنختار النار ونديرظهورنا إلى الجنة!

فقط من حقنا أن نقول، إن جوقة الأصولية في أميركا التي انتخبت أمكنة

تعبئة وعيها بكراهية وترصد وإلغاء الآخر، تقف اليوم أمام كل صناعة الهول التي ابتدعتها عاجزة عن تفسير أمر واحد، ما الذي دفعها إلى كل ذلك؟ سوى خوفها من أن تمارس الطبيعة دورتها وأن يصحو الإنسان معافى من الكوابيس وجاثوم السلطة وهي بكل ذلك تتحول إلى غول ورقي سرعان ما يجد نفسه خارج سياق الحسبان وخارج سياق السلطة حين تتحول إلى وهم بامتياز! لكأن صناعة الهول في نهاية المطاف صناعة وهم!

لا بأس؛ سندفن موتانا بقراءات أنيقة الصوت... سنترك نسخاً من وصاياهم على شواهد القبور وصايا تنص على. أن نكون أكثر حذراً في التمييز بين أفعى الكوبرا وحبل نمده لإنقاذ غريق. أن نكون أكثر حذراً في التمييز بين محطة الـ CNN وإذاعة تعلن «ارتفاع شهيد» إلى الضفة الأخرى من الوجود. إلى الضفة الأخرى من الوعي. أن نكون أكثر حذراً في التمييز بين «اليمين» المتصهين و«اليمين» الموعود في العمق الآخر من الفردوس. بين تمثال للحرية يسوق كذبة الممارسة. وبين حرية لا تتأتى بالطوب والكونكريت؛ بل بالعرق والدم وانتصاب الجبين الذي يكاد يجرح الأفق. بهذا فقط نسجل علامة فارقة وموقفاً فارقاً بين الوهم وذروة الصحوة!

٨ ابريل ٢٠٠٥

مشيخة القبيلة العالمية

مسرحية «حيرة السجين»، لأحد كبار دعاة المسرح السياسي منذ العام ١٩٦٨، البريطاني، ديفيد إدغار، تطرح قضايا القبيلة العالمية، وتدور حول دبلوماسي فنلندي قام بدور حاسم في مفاوضات السلام بين «الإرهابيين» و«مضطهدي» جمهورية سوفياتية سابقة وهمية، يناضل مسلموها من أجل الاستقلال. المسرحية سبقت صدمة العالم بـ ١١ سبتمبر / أيلول ٢٠٠١.

مفهوم «القبيلة العالمية» قبل ١١ سبتمبر، كان حاضراً وماثلاً؛ لكنه من دون شك أصبح أكثر عمقاً، وذهبت به المذاهب في الرؤية والتفسير والنظر، وخصوصاً بعد انتهاء الحرب الباردة؛ بهيمنة قطب واحد وظّف تلك الهيمنة لإحداث تقسيم معمّق عماده الفرْز في حقيقة ذلك المفهوم. تقسيم قائم على، مع /ضد، فالـ «مع» تُدخل أي قبيلة في العالم، وإن كانت في المجاهل من الحدود والأثر والدور، في عملية مصاهرة مع قبيلة وإن كانت على النقيض من تلك المجاهل والحدود والأثر والدور؛ إذ تلتقي – ولو ظاهرياً – المستنقعات المليئة بالكوليرا في دول العالم الثالث بـ «سكوير غاردن»، والشوارع المليئة بالشحاذين والمخمورين والمشردين، بوسطاء «وول ستريت»، والذين يتلقون تعليمهم البدائي في ظل شجرة «غاف» في معسكر على حدود ما من العالم، مع الذين يتلقون تعليمهم على مقاعد الدراسة في جامعات: «هارفارد»، «برنستون»، «يال»، «MIT»، «كولومبيا»، «أكسفورد»، «كامبريدج» و«السوربون». أقول ظاهرياً ضمن التوصيف النفعي لـ «مع»، تلتقي تلك القبائل ما دامت تصبُّ في هدف إخضاع العالم بقبائله إلى قبيلة القطب الواحد وإرادته وأهدافه ومراميه.

الخبرة المحدودة للولايات المتحدة الأميركية في التعامل مع الإرهاب في الداخل، من المفترض بها أن تمنح الساسة الأميركيين وحتى المحللين والباحثين

وخبراء الإستراتيجيا، فرصة الانتباه إلى أن الخبرة المحدودة تلك، على رغم تماسك البنية الداخلية (ظاهرياً) وتنوعها، بتعدُّد الأعراق، وتعامل الدولة معه ضمن مظلة المواطنة احتكاماً إلى الدستور، فرصة للانتباه إلى أن تعدُّداً في «القبلية» تلك طال الداخل الأميركي. تعدُّداً بالتباين في الاستقبال والإرسال؛ وبالتالي ثمة رد فعل متربص في الخارج بالداخل الأميركي بحكم ميراث وتركة ضخمة من الاستبداد الكوني الممنهج الذي مارسته أميركا على امتداد الكوكب، سيأتي يوم دفع استحقاقها طال الزمن أم قصر! رد فعل سيكون عنواناً عريضاً سيتم إعادة صوغه وتسويقه إلى العالم باعتباره «إرهاباً» سيطال «القبلية العالمية»، ولن يقتصر على أميركا وحدها. هكذا تم تصوير الأمر - ولا يزال - في مفارقة عجيبة تسعى من جهة إلى تقسيم الدول/السياسات إلى قبائل، وفي الوقت نفسه، محاولة احتواء واستقطاب قبائل (سياسات) العالم، وإدخالها ضمن منظومة قبلية عالمية تتولى أميركا مشيختها العامة.

٧ مارس ٢٠٠٩

ثقافة الإدراك

مسرحيات هنري ميلر مرهقة في مضامينها بالنسبة إلى عدد كبير من متتبعي أعمال المسرحي الأميركي الكبير، مرهقة من جهة استقصائها وأحياناً تفكيكها لعدد من القضايا والظواهر والإشكالات النفسية والفلسفية والاجتماعية والوجودية. ثمة جرعات كبيرة من الإدراك يسعى ميلر إلى إيصالها والتنبيه إلى خطورتها من جهة وأهميتها من جهة أخرى، وفي المحصلة النهائية هناك ثقافة إدراك يكاد يكون ميلر رائدها بامتياز بين الكبار المعاصرين، ضمن قالب أدبي شائك في بنيته، عدا الجانب الشائك في القضايا التي يتناولها ويثيرها.

تحيلنا ثقافة الإدراك إلى مسألتين غاية في الأهمية: الأولى: تتمثل في الدور الطليعي الذي يلعبه الكاتب والمفكر والأديب بالتحريض على قيم طارئة تعمل عملها في تآكل وانحسار قيم إنسانية ثابتة وضرورية يرتبك الوجود الإنساني، ويدخل في ثورات من الفوضى في حال غيابها أو تراجعها، وهو تحريض لا يأخذ طابع أو سمة المنشور السياسي بقدر ما يلجأ وينزع إلى اختيار وتقديم حالات بعضها قائم ومعاش، وبعضها الآخر يتم اجتراحه أحياناً أو افتراضه أحياناً أخرى؛ فيما المجتمع عبر دوراته المختلفة يوجده ويكرسه ويصبح حقيقة قائمة.

الثانية: تتمثل في بروز رد فعل هو نتيجة للفعل الذي تحويه الكلمة «ضمن حركية متمثلة» حركية تنتج عن إعادة ترتيب ربما قناعات» قد تكون متحركة، توجه نحو إحداث تغيير في حركة تراجع القيم الثابتة والضرورية.

وهنا لا يمكننا التفريق بين ثقافة إدراك تسعى إلى إعادة النصاب إلى القيم التي تراجعت، وثقافة إدراك تعمد إلى تأصيل القيم الطارئة بتقديم نماذج وحالات وظواهر هي الأخرى طارئة تعطى صفة الثابت والضروري وتُحدث رد فعل يجب

ألا يستهان به ضمن قطاع لا يمكننا تجاهله أو غض الطرف عنه. وعدم تفريقنا هنا يتحدد في أنها بالدرجة الأولى تتبع الآليات والمداخل ذاتها، وتحدث النتيجة ذاتها وإن بشكل وصورة على النقيض؛ إلا أنها في المحصلة النهائية ثقافة إدراك وإن بشكل مضاد.

ذات لقاء مطول مع مجلة «التايم» الأميركية أشار غابرييل غارسيا ماركيز إلى «أن تراجع الإدراك الإنساني في كثير من القضايا الملحّة، يعد سبباً رئيسياً في تفاقم هيمنة قوى لا تملك سوى إدراكها بضرورة وجودها وهيمنتها على مجموعات معضلتها الوحيدة أنها لا تريد أن تدرك حقيقة ما يحاك ضدها لإرسالها ومن دون رجعة إلى حتف يؤصل لاستمرار تلك الهيمنة».

«القطيع» ومراعي الدولة العربية!

هل مفهوم الدولة - كدولة - قائم ومتحقق عربياً؟ إنها (الدولة) القبيلة في صور دساتير مكتوبة لا تلزم واضعها بأي حس أخلاقي أو قانوني. إنها القبيلة في القصور بدل المضارب، والبزات بدل العباءات، وأسراب F ١٦، بدل السيوف، والتعريب بدل الشعر النبطي، والعطور بدل العرق في جحيم الصحارى. إنها قيادة قطيع من البشر بدل قطيع من الدواب، لكن المفارقة العجيبة أن القبيلة تبحث عن المراعي كي تعيش دوابها وتستمر هي في الحياة؛ فيما الدولة العربية تنشغل بالبحث عن مراع تضمن لها البقاء وإن مات «القطيع» الذي تقوده! هل نجحت الدولة العربية في «مشروع» المواطن؟

«مزاجية» الدولة العربية لا تتيح لذلك المشروع أي فرصة للنجاح. المشروع يحتاج إلى رؤية ومنهج لإنجاحه؛ فيما المزاج يخلو من الاثنين معاً! إنها (المزاجية) متحركة، لا بمعنى تحولها إلى قفزات. إنها متحركة في فوضاها غير المنتجة. تركن إلى المعتم، المجهول. تشق طريقها وسط ارتطامات بالجملة، وحين تصل تكون مدمّاة، خائرة القوى، ولفرط الارتطامات، تكون فرص فقدانها للذاكرة قائمة، إن لم تكن فقدتها بالفعل!

يتبدّى الالتباس في مفهوم المواطنة عربياً أكثر من أي مكان آخر في العالم؛ لأن حدود وصلاحيات وسلطات الدولة العربية المعاصرة هي الأخرى ملتبسة. لا نتحدث عن التباسين هنا. الالتباس واحد بما يحدثه من نتائج ومفارقات وواقع قائم!

الدولة العربية تصر على مفهوم «الرعية» بما يتضمنه من وصاية ورقابة وتوجيه

وإملاء وفرض وتحكم ومصادرة وتمييز وقمع. كيف لمفهوم «المواطنة» أن ينشأ ويتحقق في ظل هكذا ألغام؟؟؟

الدولة العربية نفسها تعاني من بطالة مقنّعة. كيف؟ ألا يكفي أن لها من الأظافر والأسنان والأصوات والأحلام الكثير، من دون أن ينعكس على أدائها محاولة وإنجازاً؟ ألا يكفي أن المواطن لا تطاله من تلك البطالة المقنّعة سوى الأظافر والأسنان، فيما صوته وأحلامه مصادرة!

×××

الدولة العربية مثل الطائرة التي تريد الإقلاع من دون ركاب ووقود!

٦ مايو ٢٠١٠

التاريخ حين يكون أقل عاطفية

«إدوارد» اسم ينتمي إلى الغرب بكل هواجسه وهوسه، و«سعيد» هو في الصميم من «تعاسة» الشرق!

رجل اشتغل بالمقارعة، وذهب إلى الحدود القصوى من البرهان على أن الغرب ضالع حتى العظم في موهبة التزوير والتعتيم وليّ الحقائق! وبين موقفه المضاد لاتفاقات أوسلو وعمله الدؤوب والفارق على موضوعة «الإستشراق» يتبين الخيط الرفيع في بداية اشتغاله على ممارسة المنفى في وطن هيأ له كل أسباب بطالة المواطنة، ولكنه أبى إلا أن يمعن في انتمائه بالتوغل في المنبع النائي، في الصميم من فضح لعبة التزوير وتعريتها.

أن تكون أستاذاً في بيئة تتنفس هواء صهيونياً كجامعة كولومبيا، وأن تكون أستاذاً للأدب المقارن في جامعة هي في العمق من التيه اليهودي في بعده الجارح، فذلك يعني أن عليك أن تتحول إلى أبجدية في صورتها المستسلمة والبدائية.

هل يمكننا الحديث عن مثقف سخي يكشف لنا عن بخل الجهل الذي يحيط بالعالم؟ في كتابه «الإستشراق» عمد إدوارد سعيد إلى تأسيس أركيولوجيا «الصدمة»... الصدمة في بيانه وبلاغته التي قاربت القبض على الإدانة تجاه مفهومين ظلا غائمين على الغرب: الإسلام والعرب «غائمين من حيث الأثر الذي تركه تكثيف الإستهداف والتعمية في وسائل الإعلام الأميركية، والإدانة من حيث وعي تلك الوسائل بالدور الذي تمارسه بعيداً عن الوعي والتفهم».

كان مقدسياً بامتياز وإن تورط في حضوة «النيويوركي»، وانشغل بالخريطة والجغرافيا والانتماء وتعدد الهويات. في إشارة له «أنا مسكون بشعور عميق بأن لي هويات متعددة... أفضِّل أن أكون هكذا على أن تكون هويتي صلبة وجامدة». إلا

أن ذلك التعدد لم يفقده شيئاً من روحه المحلقة في المكان الأول والهجرة الأولى والمذابح الأولى والاغتراب الطارئ والمقيم معاً! تجاوز الزواج من المطلق، ظل حذراً من الاستجابات التي تفرضها بورصة العلاقات الدولية... قام بتنحية كل ذلك جانباً ليتفرغ للسان من نار لتأسيس مرجعيات هي على تماس مع الحسم.

ومنذ كتابه «صورة العرب» الذي أصدره في العام ١٩٦٨ وولادة كتابه «الإستشراق» في العام ١٩٧٨، مرورا بـ «الثقافة والإمبريالية» في العام ١٩٩٣. أصبحت لإدوارد نكهة فارقة. نكهة خسف القناعات والثوابت في فكر عالمي متهم بانحيازه للقوة والبطش والآلة!

في «الإستشراق» عرى العلاقة الحقيقية بين الثقافة والبطش الغربي إزاء الشرق. وفي مجمل كتاباته التي وسمت حضوره في المشهد السياسي العالمي قارئاً ومتتبعاً ومحللاً جريئاً تبدى موقفه من اتفاقات أوسلو، من خلال تلك القراءة لحقيقة الكيان الطارئ على الجغرافيا والتاريخ. قراءة مستمدة من تراث عريق تلمسه ورصده من المجازر والترحيل وطمس الهويات على مستوى المكان والتاريخ والإنسان. ولم تكن كلمة الروائي الهندي الأصل البريطاني الجنسية، سلمان رشدي وشهادته التي أطلقها ذات عزلة ضرباً من الجنوح في الرؤية والرؤيا حين قال: «إن هذا الرجل يقرأ العالم بنفس القوة والوضوح اللذين يقرأ بهما الكتب».

كما لم يتجاوز الكاتب في صحيفة «ليبراسيون» الفرنسية، جان بيير بيران، الحقيقة حين قال: «قليلون هم المفكرون الملتزمون الذين كتبوا وناضلوا بمثل هذه القوة حتى يكون التاريخ أقل عاطفية وأكثر تعقيداً وعقلانية».

٠٢ أكتوبر ٢٠٠٣

الإرتهان إلى التاريخ

سيمارس التاريخ قسوته على الذين يدّعون أنهم لا يعرفون. سيقسوا على المتغافلين، على اللاّ «أدريين». على الذين اكتفوا بمكياجهم، مطلين على شرفة لا تاريخ ولا حاضر ولا مستقبل ولا جغرافية لها.

هذا الكلام ينسحب على القادرين على ضخ دماء جديدة في البلاغة العربية، والنص العربي، والمشهد العربي، والحراك العربي، والرفض العربي، وحتى القبول العادل والمشرِّف والداعم لمسيرة العرب.

من القصيدة الواعية لشروط اللحظة، إلى القصيدة الذاهبة في غور الزمن والمستقبل. من التعليق السياسي القارئ والمتنبئ بالثغرات والإنكشافات، إلى التعليق الذي يرمي بإفادته تنبيهاً لمنزلق وشرك ما.

لا أحد بمنأى عن المساءلة. من العاطل في مقهى، واستمرأ تلك العطالة، فيما هو قادر على الفعل ومابعد الفعل، إلى المصابين بداء اليأس في المقاهي السياسية، وحتى مقاهي «البغاء» و«الغباء» التي قادتهم إلى الانحياز إلى عطْل رأوا ضرورته؛ إذ ثمة من يرى ضرورة قصوى لمثل تلك العطالة والبطالة، في ظل تجميد لا يقتصر على الحجر والمدر؛ بل يطول الإنسان.

فقط، راقبوا الخريطة. الخريطة التي يراد لها أن تتحوّل إلى «كعكة» عرس افتراضي، يحق لأي متطفِّل على المكان والزمان، عدا «المعازيم» أن يحدِّد حصته منها. وليس بالضرورة أن تكون القسمة عادلة؛ إذ أكبر الظن أنها قسمة «ضيزى».

لا أعني بالخريطة حدوداً، ونقاط تفتيش، وإبراز جواز سفر أو هويّة أو

وثيقة. كل ذلك تحصيل حاصل. أعني تلك الإهانة المقيمة، والمجنّدة لها جيوش للإمعان في تعميقها. تعميق إهانة المقيمين قبل العابرين في هذا الزمن الموبوء. تعميق إهانة أبناء السبيل، والذين من دون وثائق تدل على انتمائهم إلى هذا الكوكب اللعين. اللعين بامتياز!

فقط، أخاف أن نكون مرتهنين للتاريخ. وأي تاريخ؟ تاريخ ليس بالضرورة أن نكون طرفاً في صوغه بعدل وإحسان وشيء مما تبقى من ندى الضمير. تاريخ يحدد ملامحه وشروطه ويصوغه رجل خرج للتو من خمّارة أو غرفة استجواب أنستْه نوعه: ذكراً أم أنثى! تاريخ ينشغل بأسوار الكبار، وينسى الأسوار التي تكتظ بها أمة من الأحرار. تاريخ ينشغل بنوع البلاط وزوايا اللهو، فيما الأرض تكاد تكون قاعاً صفصفاً. التاريخ الذي يذكر فقط لأن القوّة مفعّلة على الأرض، والجبروت يتحكّم بكل ذرة هواء عابرة أو مقيمة، فيما ينسى كبار الإرادة والشرف والعلم في ذروته. فقط لأنه لايريد أن يتذكر.

لا أخشى على نفسي من مستقبل لم يتضح بعد. ولا أخشى على نفسي من حاضر مازلت فيه حيّاً، مادمت أشاكس جهاته، وأشكك في المتوهم من ثباته. فقط أخشى من استدعاءات لا تكف عن التحشيد والتكالب على تاريخ لا يسرُّ أحداً. تاريخ يحاول أن يختصرني. يختصركَ. يختصرُكِ. يختصركم. يختصركن في نص. نص لا مسئول عن صوغه وتفاصيله. نص يريد قول مالم أقله، مالم تقله، مالم تفكري في قوله. نص يريد اختزال كل هذا الحراك فيما يريد قوله صاحب القوة والمال والجبروت.

بهكذا تخوُّف، يبدو التاريخ «شبحاً ماثلاً». شبحاً وظيفته إطفاء كل متجسد وماثل. مواراة وتعتيم كل مقيم له في الفعل الذروة من الأثر، والعميق من

التأثير. شبحاً وظيفته تعطيل المتحرك. وتحريك العاطل، ضمن شروط تخدم السياقات التي يرتضيها وينتخبها ويصر على مثولها وحضورها.

١٣ مايو ٢٠٠٨

الحرب ضد التاريخ

المحرر المسئول في مجلة «نيوزويك» الدولية، فريد زكريا، أشار في مقال له بتاريخ ٣٠ ديسمبر/ كانون الأول العام ٢٠٠٣ إلى «أن المشكلة الأوسع هي أن حرب العراق قد وقعت فعلاً فالجدال حولها الآن هو خوض حرب ضد التاريخ بدل تقديم رؤية للمستقبل».

يحصر زكريا الحرب ضد التاريخ في نماذج مثل صدام حسين وقتها «في قبضة القوات الأميركية»، معمر القذافي «انظر إلى تأثير حرب العراق على قرار ليبيا في نزع السلاح»، أسامة بن لادن، ترتبك رؤية زكريا، لأن ما يحدث بالنسبة إلى ابن لادن هو أن المطاردة مازالت ممعنة في المستقبل.

مشروع الديمقراطية في الشرق الأوسط الجديد في جانب منه حرب على التاريخ، تاريخ يراد كتابته بحبر وشهود أميركيين، مع إرسال المزاج والقناعات والمناهج والأزياء، والترفيه، والوجبات والعلاقة مع الله، إرسالهم جميعاً إلى التاريخ.

المرشح المناهض للحرب على العراق، والمتنافس الرئاسي الأميركي هاوارد دين، لا يذهب في اتجاه آخر يحمي التاريخ ويحصنه، بقدر ما يؤجل الخسارات الناتجة عن التجرؤ عليه، ريثما تسترخي أطرافه بفعل حقن لا حصر لها تتكفل بمعظمها أنظمة هي خارج سياق التاريخ، عدا إقامتها خارج حدود المستقبل.

في إحدى زياراته لـ «لوس أنجليس» في ١٥ ديسمبر/ كانون الأول من العام ٢٠٠٤، صرح بأن «المصاعب والمآسي التي واجهناها في العراق، تظهر أن الإدارة شنت الحرب بالطريقة الخاطئة في الوقت غير المناسب ومن دون تخطيط ومساعدة وبكلفة غير معقولة».

الحرب في حد ذاتها بالنسبة إلى «دين» ليست خطأً أو عاراً، فقط هو التوقيت، لأنه يوقظ التاريخ من نومه قبل أن تتمكن قوات المارينز من الوصول إلى مخدعه وإرساله إلى جحيم يليق به.

«دين» يقحم الأخلاق في طريق الإجهاز على التاريخ: «من الممكن تأمين أعداد كبيرة من الجنود الأجانب إن استعادت الولايات المتحدة قيادتها الأخلاقية في العالم».

هل يحتاج القتل إلى شحذ طاقات العالم لإثبات أن الولايات المتحدة قادرة على فعل الإجهاز بأكبر قدر من الأخلاق؟

الحرب على العراق لم تبتكر الحرب ضد التاريخ، بقدر ما أن تاريخ المنطقة نفسه في مجمل المراجعات التي يمكن الوقوف عليها، فتح شهية الولايات المتحدة الأميركية بيمينها المتطرف، مثلما فتح شهية بعض المنظرين والمعارضين للحرب على العراق، كونها أحرجت المستقبل واستفزت الحاضر ولم تستطع أن تخرج تاريخ منطقة «الشرق الأوسط» من مساحة احتقانه وعزلته، وهي الرؤية نفسها التي صرح بها أحد مسئولي طالبان العاملين مع مقاتلي «القاعدة» في منطقة وزيرستان على الحدود الباكستانية الأفغانية رحمن حوتاقي: «سيكون لاعتقال صدام حسين نتيجة إيجابية على الجهاد ضد أميركا وعمليات «القاعدة» في العراق. لقد كان الكثير من العراقيين يكرهون صدام لذلك لم ينضموا إلى المقاومة، أما وأنه قد ذهب الآن، فإن المزيد منهم سينضمون للجهاد المقدس ضد الولايات المتحدة».

تقريرات وتوصيفات كتلك لا تضع التاريخ في مهب الريح فحسب، فيما هي تسعى إلى احتلاب المستقبل من ضرع مقاومات ترفع أكثر من راية وأكثر من

شعار وأكثر من استحضار واستدعاء قاتم لتاريخ يظل الذبح والنحر فيه هو الجانب الماثل منه، أقول لا تضع تلك التقريرات والتوصيفات التاريخ في مهب الريح، بقدر ما تقامر بالمستقبل وتدفعه باتجاه رهانات تظل رابحة في ظل منطق آلة لا تجيد قراءة الزمن بقدر إجادتها إعادة تشكيل خراب المكان.

الحرب ضد التاريخ في نهاية المطاف، حرب على محاولة استدراك قراءته من قبلنا، مثلما هي حرب على تجنب المرور على الطرق المؤدية إلى المستقبل.

١٦ أغسطس ٢٠٠٥

الصناعات والمعلوماتية وصلابة التاريخ

الصناعات تنزع إلى الضجيج، فيما المعلوماتية تنزع إلى الصمت، الأولى تتبنى الإفشاء والإعلان وأقرب إلى الفضيحة، فيما الثانية تتبنى الصمت، الاتزان، وأقرب إلى الخلوة، الاعتكاف كما يرد في الأدبيات الصوفية والفقهية. العالم تغير؛ ما يعني أن العقلية التي تدير وتتحكم في شئون العالم هي الأخرى تغيرت، وهو تغير لا يعني بالضرورة إلى الأمثل والأحسن والأكمل؛ بل قد يعني النقيض من كل ذلك. تتجه الصناعات بكل ضجيجها وصخبها نحو تأكيد مزيد من هدوء وسكينة العالم، وتتجه المعلوماتية نحو تأكيد مزيد من نظمية العالم ورفاهيته ويسر انتقالاته وقفزاته النوعية. والبشرية لم تتصالح، أو على الأقل، جزء كبير منها لم يتصالح مع شروط ومداخلات ومفاجآت القرن الجديد، لأن القرن الماضي كان صدمة على أكثر من صعيد، أولها صدمة الإمعان في تحريف التاريخ، والاتجاه به ناحية الاستفراد ومن ثم الإملاء، فيما الصدمة الأكبر تتركز في تحريف الجغرافيات، بالنظر إلى أن التاريخ صلب في علائقه باشتراط أن الذي يرصده ويكتبه شاهد صلب. تترك الجغرافية عرضة لأكثر من عراء، ما يفقدها الصلابة المرتجاة. جغرافية رخوة تظل عرضة لإعادة التشكل، ومثل تلك الرخاوة وإمكان التشكل، يدفعان بالجغرافية إلى أن تكون أداة سهلة للتفجير، وتسخيرها كحزام ناسف في وجه عالم لا يخلو هو الآخر من رخاوته. الصناعات والمعلوماتية يصنعان المستقبل، ويفترض أنهما يمهدان لكتابة تاريخ يستمد صلابته من أثر ما يتركانه على مجمل واقع الإنسان، فيما يفترض أن يمهدان في الوقت نفسه لصلابة جغرافيات عانت طويلاً من سطوة الحروب والانتهاكات التي أثخنتها.

٠٣ أكتوبر ٢٠٠٥

الهندي الأحمر والتشبث بشجرة الزيتون

يؤدي الهنود الحمر الذين تعامل معهم المستعمر الأبيض باعتبارهم عالة على الجنس البشري في الأرض الجديدة، طقوساً دينية فحواها الاعتذار إلى الشجرة حين تضطر جماعة منهم إلى قطعها لأكثر من سبب، في سلوك متحضّر في احترام البيئة. اليوم بات قطع الرؤوس ضرباً من الألعاب الإلكترونية التي يتحلّق حولها مئات الآلاف من الأطفال في العالم.

جائزة (بايو) للعام ٢٠٠٦، كانت من نصيب المصوّر الصحافي جعفر اشتية، لامرأة فلسطينية تحتضن جذع شجرة هي ما تبقى من حقل زيتون جرفته قوات الاحتلال الصهيوني في قرية سالم قرب مدينة نابلس. هي نفسها القوات التابعة إلى دولة تصنّفها الولايات المتحدة الأميركية دولة أولى في الديمقراطية في الشرق الأوسط. بالدم البارد نفسه الذي يعمد إلى حقل زيتون فيجرفه (الشجرة المذكورة تثمر بعد ٤ - ٥ سنوات وتستمر في إعطاء ثمرها لأكثر من ألفي عام، وهي بالمناسبة، أول شجرة نبتت في الدنيا، وأول شجرة نبتت بعد الطوفان)، تعمد قوات دولة الإحتلال نفسها إلى اجتثاث إنسان الأرض الفلسطينية بالدم البارد نفسه. عن أي ديمقراطية تتحدث أميركا؟

إذا هان إنسان على أي قوة، فسيهون عليها ما عداه من مخلوقات. أليس من السذاجة والحمق، الحديث عن احترام البيئة وطقوسها في دولة تقوم على القتل اليومي والتهجير وتجريب ترسانتها على البشر العزّل؟

ذهنية وعقلية كتلك تحيلنا إلى الجرعة الإنسانية المفقودة في ثقافة القوة والهيمنة والإلغاء؛ إذ لا جرعة يمكن التعويل عليها أو حتى توهمها. المأساة أن الدولة الباطشة الأولى في العالم افتقدت بوعي كبير وحاضر كل تلك الجرعة من الإنسانية في

تحوّل بوليسي واستخباراتي لكل همسة ونجوى في هذا العالم، بُعيْد اختراق غفلتها وسكْرتها بالجبروت واستواء القوة لديها، تلك الكفيلة بتدمير هذا العالم لمئات المرات، عدْوَاً عليه في ممارسة هي في الصميم من أخلاقها واستهتارها.

الطقوس نفسها التي يعْمد إليها الهندي الأحمر في صلوات مركّزة واعتذارات يبدو ألاّ نهاية لها حتى بعد فعل اجتثاث شجرة، تعمد امرأة فلسطينية مسنّة إلى احتضان جذع شجرة زيتون كاحتضانها لعائد من أبنائها بعد سجن أو سفر طويل، أو كاحتضانها لابنها الذي قضى في لحظة غدر مستشر. صورة ومشهد يضع هذا العالم – كل العالم – أمام مسئولياته التي تبرأ وتخلّى عنها. صورة تعيد هذا العالم إلى بدائية أخلاقياته بهذه القدرة على الصمت إزاء تجاوزات دولة مُصنّفة ضمن الدول الطاعنة في عضوية النادي الديمقراطي، فيما هي في الذروة من القهر وموهبة اجتراح طرق مبتكرة في حرق الحرث والنسل.

اجتثاث حقل من الزيتون، في العميق من توهم اجتثاث ٥ سنوات من عمر امرأة في الهزيع الأخير من حضورها على هذا الكوكب، وفي العميق من توهم اجتثاث ٥ سنوات أخرى من عمر شعب ظل – ولايزال – متشبثاً بالتراب والسيرة والتاريخ والحاضر من المشاكسة في الممارسة والحضور. وتوهم القدرة على اجتثاث قرون من الامتداد والمواجهة والتصدي لكل أشكال النسف والإلغاء والتزوير، ومحاولة يائسة لتكريس صورة الكائن الذي هبط على أرض لم يتمكن من ترويضها وإخضاعها لصالح الجنس البشري، فيما الصهيوني المستجلب من الجهات الأربع استطاع أن يقيم على ترابها مفاعلات نووية، ومصانع لا تعد ولا تحصى من آلة الدمار والموت.

أن تتشبث بجذع شجرة زيتون، ذلك يعني تشبثك بأحلامك وذاكرتك وأملك. يعني تشبثك بالمستحيل /الممكن في ظل دولة تحيل ممكنك إلى مستحيل،

ومستحيلك إلى كابوس وخرافة.

يضعنا تشبث تلك المرأة بجذع شجرة الزيتون أمام مواجهة واستحقاق التمييز بين الهمجي والإنساني. بين المقيم والمنتمي إلى الأرض، والطارئ عليها. يضعنا أمام صدقية تصنيف التعاطي الراهن الذي يقذف بالمتحضّر والإنساني في خانة الهمجي والمؤقت ليحتل مكانه في الأصيل والمقيم والأبدي.

١٠ أكتوبر ٢٠٠٦

«لوردات الأدغال»

عنوان مقتبس من مقالة بروس واطسون: «طرزان الأسطورة الخالدة»؛ إذ اجتاحت العالم حمّى هيمنة الفرد على الغابة من اليابان... أيرلندا وصولاً إلى أميركا، وهي حمّى سرت في المجتمعات المتمدّنة بحثاً عن أسطورة مهجّنة. بمعنى انغماسها في صور ومعطيات الحاضر بكل إمكاناته، وتسللاً إلى الجانب النقيض؛ إذ كل شيء يوحي بالبكارة، أو البدائية، وهو انغماس، أو هروب له مدعاته أحياناً، ما دام محصوراً في نطاق التخيّل الشعبي، ولكنه متى ما برح تلك المساحة انتقالاً إلى قوى تملك من أسباب القوة الكثير والمفزع، فإن الأمر يتجاوز مجال التخيّل إلى مجال التوظيف والإيحاء المراد منه تمرير رسالة مختزلة مفادها: أن بإمكان القوى المهيمنة والممسكة بمقادير الأمور، تحويل المتخلف والبدائي والغارق في غيبوبته إلى عالم واقعي ومتطور، كل ذلك بفضل القوة ولا شيء غيرها.

الحال التي انتابت مواطنين متمدّنين من اليابان، أيرلندا، وصولاً إلى أميركا، لم ينسوا أن يمنحوا أنفسهم فسحة من تخيّل أنهم يتأرجحون من غصن إلى آخر، وبحسب تعبير واطسون «على امتداد الولايات المتحدة، كانت قبائل من الأطفال تتسلق الأشجار». مثل ذلك التأرجح لا يخلو من رمزيته في توظيف الأطراف الممسكة بالقوة، ويحاول أن يمرر رسالة مختزلة أيضاً هذه المرة تتركز في التأرجح من جغرافية متخلفة، مروراً ببؤر مشبعة بالقلق والصداع، وليس انتهاء بوحوش بشرية تريد أن تفرض هيمنتها ونظام همجيتها على المجتمع البشري، وإن تشكل في عمق غابات الأمازون.

تربية قرود لصبي في مجاهل من المكان - إفريقيا نموذجاً - يوحي بتأصيل وتأكيد حالات التمييز أو لنقل الانتقاء الذي يطال المكان أولاً؛ ما يعني أنه يطال الإنسان. ولتعميق الفارق والاختلاف، كان لابد لذلك الصبي أن يكون

أبيض. ما الذي قذف بصبي أبيض في مجاهل مكان ينتمي إلى قارة سمراء؟ سؤال يبدو بليداً. أليس كذلك؟ ولكن البلادة تكون أكثر إيلاماً وكلفة حين يستطيع ذلك الأبيض – بقدرة قادر – أن يروّض وحوشاً تظل على تواصل حسي ونفسي؛ بل وعلى مستوى توارد الخواطر مع ذلك الصبي من دون أن يطلق بوقه المألوف وصرخته النموذجية، في الوقت الذي تكون فيه تلك الوحوش في حال من الترصد والنفور من مواطني المكان نفسه.

هل نحن بصدد ترميز آخر يوحي إلى ترصد الأنظمة في تلك الأمكنة للذين قدّر لهم أن يكونوا أقل قوة، وتحت مسمى رعايا؟ ربما.

١٩ أبريل ٢٠٠٦

درويش والأفق الاستثنائي

نبحث عن أفق استثنائي في النص. أفق يعيد ترتيب العلاقة بينه وبين المتلقي. بينه وبين العالم بكل أشيائه. مثل ذلك الأفق لم يكن في أولويات كثير ممن ذهبوا إلى الشعر أو ذهب الشعر إليهم.

مثل ذلك الأفق، يكاد يكون لا نهائيّاً في مشروع محمود درويش الشعري، وخصوصاً بعد تجربة الاجتياح الصهيوني لبيروت العام ١٩٨٢، وامتداد الشتات الفلسطيني إلى جهة إضافية من الأرض؛ إذ بزغت رائعته «مديح الظل العالي».

مُحدّد في البحث عن مفردة في النص تعيد تماسكَ وتوغلَ ذلك الأفق، وتعمل على اختزال وإعادة تكوين الأفق المصادر خارج النص بأفق يوازيه ويحاكيه وينتصر على معوقاته وشروطه، وحتى قدره داخل النص. البحث عن مضامينَ تكسر وتتجاوز الصورة النمطية التي طاردت درويش باعتباره متحدِّثاً رسميّاً باسم العذاب الفلسطيني دون سواه. وباعتباره محرِّضاً وكاتبَ بيانات الثورة. تلك الصورة التي التصقت به جهلاً وبعثرة وتورطاً في سوء فهم لمشروعه؛ دفعه إلى التعبير عنه بسخرية بالغة في أكثر من لقاء صحافي أو تلفزيوني بالقول: «ثمة من يريد أن يلبسك صفة القداسة، ولكنه في الوقت نفسه يرجمك بحسن نية».

نزوعه إلى الكوني، ليس ردّ فعل على مثل تلك التصنيفات المرتجلة، والتي لا تخلو من لؤم في كثير من الأحيان.

مثل ذلك النزوع، تكَشّفَ في أعمال مزجت الذاتي بالكوني. أو بمعنى آخر، اكتسب الذاتي في تجربته سحر ومدى وأفق الكوني.

تجربة كانت على تماس مع المنسي والمهمل والمسكوت عنه؛ بحيث أصبح الرئة

الحقيقية التي تتنفس منها تجربته.

منذ «هي أغنية... هي أغنية»... «ورد أقل»... «لماذا تركتَ الحصان وحيدا»... «لا تعتذر عما فعلت»... «سرير الغريبة»... «كزهر اللوز أو أبعد» و«أثر الفراشة»، تكشّفَ مثل ذلك النزوع الذي آتى نصوصاً هي في الذروة من الذاتي / الكوني، أو الكوني / الذاتي... لا فرق.

ورحيل درويش لا يترك فراغاً شخصياً في المشهد الشعري الكوني، بقدر ما يترك فراغاً في القدرة على اقتناص ذلك الأفق الاستثنائي الذي أشرنا إليه في مطلع هذه الكتابة.

١٤ أغسطس ٢٠٠٨

رحيل درويش... ومنطق الخرائط

رحل صاحب «مدائح لحصار البحر»، و«لماذا تركت الحصان وحيداً»، و«ورد أقل».

رحل وفي الذاكرة معجم فخم وثري ومرعب. مرعب من حيث سابقته في اللغة الشعرية العربية، وفخم من حيث بساطته، وأحياناً ما يشبه مباشرته.

رحل الشاعر الفلسطيني محمود درويش (٩ أغسطس/ آب ٢٠٠٨) فيما ظل الصوت المتفرد في القارة الشعرية العربية منذ مطلع القرن، قادراً على احتلال مساحة في المشهد الشعري العالمي، هي في الصميم من التقدير والإعجاب.

له ماله، وعليه ماعليه، لكنه يظل أكثر الأصوات الشعرية قدرة على إدخال «العادي» و«البسيط» في مساحة النقيض منهما. في مساحة شعرنة المهمل من تفاصيلنا ويومياتنا، وتوهم نسيان تلك التفاصيل التي يلتقطها ببراعة الجراح في «البتر» والفنان في «الوصل»!

هل تكفي ذكرى رَحيل صاحب «هي أغنية... هي أغنية» و«سرير الغريبة» و«كزهر اللوز أو أبعد» و«جداريات» كي نذهب في تلفتنا إلى أغنيات صودرت، وسرير تم احتلاله، ولوز صار مراً كتفاصيل التشرذم الذي نحياه؟ وجداريات تحاول عبر القفز وتجاوز «المجاز» أن تضع الجدار والسور العنصري العازل أمام الضمير الإنساني، بعيداً عن انشغالاته بالتلوث والاحتباس الحراري، فيما البشر في تنور كوني بمثابة مادة للتدفئة. جداريات تحاول أن توصل رسالة احتجاج وحضور في ظل أكثر من قيامة للحصار المقنن، وصمت مظلات دولية آثرت النأي بنفسها عن الاحتجاج!

رحل صاحب «أحد عشر كوكباً» و«عابرون في كلام عابر» و«مأساة النرجس، ملهاة الفضة»، وهو يضيء الزمن الشعري، إن لم يكن الزمن السياسي، ويضئ العبور باعتباره بصمة حضور في الزمان والمكان، ويضيء المأساة باعتبارها نرجس الفلسطيني، والمصادر حقه في الحيز من المكان والهواء، ويضئ ملهاة العرب بشكل مستفز علّه يطفئ يأسهم بالخروج من المأساة!

هل يحدث ذلك؟ الخريطة لها رأي آخر! وفي منطق الخرائط الذي أمعن فيه درويش، تصل إلى الحقيقة الآتية: من لم يحصن نفسه بمسلّمة وضرورة وحق البقاء، لن تحصنه أي خريطة في الدنيا.

٩ أغسطس ٢٠٠٩

كحِداءِ بدوي في وحشة مدى

نتحدثُ عن الغيابِ كأنْ لاَ أحدَ هنا. نتحدثُ عنه باعتبارِه انفصالاً مادياً عن أرواحِنا ربما، وإلا ما الذي يجعلُ تلك الحاسةَ حاضرةً بهذه الشراسةِ المُحْرجةِ أخلاقياً؟

الذين نحبُهم يرفضون دائماً أن يكونوا وراءَ ذاكرتنا. إنهم ذاكرتُنا التي كثيراً ما تصاب بالعَطَبِ، ونتأكدُ من عافيتِها حين يكونُ الذين نحبُهم أمامَنا كأنهم – بل هم كذلك – يسهرون على درسِهم اليوميّ. ليس لنا فحسب؛ بل للحياة نفسها، وخاصةً حين يكونُ الأحبةُ من الطِراز الذي يأتي إلى الحياةِ بعفوية بالغة، ويعيشُها بعفويةٍ، وحين يدخلُ في وَرطته الجميلةِ (الشعر) يذهبُ إليها بعفويةٍ بالغةٍ أيضاً.

لم يكنِ الشاعر عبدالله حمّاد، شاعرَ مقهىً أو منبرٍ أو شاعرَ غنائم يتمُ اقتناصُها هنا وهناك. كان شاعراً يبحث عن غنائمِ الروحِ وغنائمِ القيمةِ المضافةِ إلى الإنسانِ. الإنسانِ الذي جاء إلى هذا العالم كي يمنحَه معنى بحسب تعبير «نيتشه».

لم يكن شاعرَ مساحاتٍ مؤجّرةٍ كما تُؤجّرُ مصاطبُ في الأسواقِ الشعبيةِ؛ إذ الذاكرةُ الجمعيةُ الاستهلاكيةُ تذهبُ وفْقَ ذلك المفهومِ إلى إهدار القيمة. كان شاعراً من طِرازٍ فريدٍ ومُربكٍ ومُحْرج وجارحٍ وصاعقٍ وراعدٍ وبارقٍ، وفي النهاية، كان بسيطاً كالماء، مفعماً بالأُنس، كَحِدَاءٍ بدويٍّ في وحشةِ مدىً، وشحِّ كلأٍ، وتناسلِ سرابٍ.

كان مفعماً بحريّةٍ استثنائيةٍ أيضاً، لا عَبْرَ غنيمةِ الدواوينِ، لأنه كان يعي مقولةَ العربِ قديماً: «ما كُتِبَ قَرّ وما حُفظَ فَرّ». كان يُقِرُّ برفضه واختلافه، ولكن بأخلاقيةٍ عاليةٍ، وسمو ملْفت، وحين ينتهي من كلِّ ذلك، يتفقّدُ نصّهُ المؤجّلَ، إما لفرْطِ مرضٍ أرادهُ أن يكونَ سراً مغلقاً على الأصدقاء كي لا يوسّعَ رقعةَ وحشتِهم

وعنائِهم فارتأى أن يصادرَ حِصّتَهم من تلك الوحشةِ والعناءِ بنُبْلٍ بالغ. يضعُنا أمامَ قيمةٍ أخلاقيةٍ ملفتةٍ قبل أن يضعَنا أمام قيمةٍ إبداعيةٍ استثنائيةٍ، من دون أن يصرِّح بالقيمتين معاً.

نفتقدُه في ظل هَذَرٍ بالجُمْلةِ. في ظلِّ متطفلين على الإيقاع، عدا التطفلِ على الشعر، في ظل مخلِّصي نصوصٍ يكادُ أكثرُهم أن يزاحمَ بعض المخلِّصين الجُمركيين.

لحياتِكَ الأخرى مذاقٌ ورؤيةٌ وحِصةٌ وقيمةٌ واستثناءٌ نَغبِطُكَ عليها جميعاً، وأنت أهل لكل سمو.

٧ مارس ٢٠١٠

مضاعفة الصدمة

لم يقل أحد بمثالية أبي الطيب المتنبي في الحياة. العارفون بسيرته، يدركون عمق انتهازيته؛ لكن ما تركه من ثروة بلاغية وبيان يشفع له؛ لأنها ساعدت كثيراً في تفكيك تلك الانتهازية كحال عامة. انتهازية الفرد وانتهازية الدولة. المشكلة تكمن في أن انحساراً ومواتاً في البلاغة والبيان دبّ في أوصال الذين يغتالونه بشكل يومي وبشكل «انتهازي»؛ ما يعني أن صدمتنا صارت مضاعفة!

×××

بلزاك، وسّع من أفق صاحب «رأس المال»، كارل ماركس. باعتراف الأخير، كان لبلزاك أثر عميق عليه في فهم النفس البشرية، وفي فهم الواقع المحيط به من خلال شخصيات بلزاك الروائية. معظم المفكرين العرب اليوم، ينظرون إلى الرواية باعتبارها «خلاصاً من الوهم والفشل» والتعبير الأخير صغته في جلسة تهكم جمعتني بالراحلين، الروائي جبرا إبراهيم جبرا، والمؤرخ العراقي، علي جواد الطاهر، والمسرحي المصري، ألفريد فرج، في «هوليدي إن» الشارقة، على هامش الاحتفال بتوزيع جائزة سلطان بن علي العويس الثقافية، في دورتها الأولى. مضت ١٨ سنة. هل تغيرت الرؤيا؟ على العكس، هي في استفحال!

×××

عام من العمل مع الشاعر والمسرحي السوري الراحل، محمد الماغوط، تعادل دهراً من التجربة. أفتقد قسوته وهذيانه أحيانا. أفتقد فروسيته وعمق بداوته «المتحضرة». أفتقد قدرته على تراكم المختلفين معه، وقدرته على إقناع العالم بأنه في اللب من الرؤيا. في اللب من قدرته على تراكم المتفقين معه؛ لأنهم من سنخه. سنخ الاختلاف في النظر إلى العالم بكل تفاصيله.

٦ أغسطس ٢٠٠٩

الماغوط ودكاكين الأحزاب العربية

رحل صاحب «العصفور الأحدب»، «سأخون وطني»، «حزن في ضوء القمر»، «المهرج»، «الفرح ليس مهنتي»، «المارسيليز العربي»، «الأرجوحة»، و«غرفة بملايين الجدران». رحل محمد الماغوط، المتهكم والراصد لعروبة ذهبت وتذهب في سخرية الواقع والممارسة. لم يشرّح شاعر أو مسرحي أو كاتب، العروبة مثلما فعل الماغوط. لم يسمح لضميره ووعيه أن يترك لها حتى ورقة توت، لأنها في ظل مرحلة ممعنة في كذبها ودجلها وتسلقها وانبطاحها ووفرة الطغيان فيها، وجد أن أقل ما يتبقى من شرف المرء وحريته وعروبته غير الملوثة بمراسم الكذب والخديعة والإعلام المتورط في عهر بالجملة، يكمن في أن يقول كلمته من دون أن يمشي، كما درج على ذلك كثيرون. يكمن في تسمية الأشياء بأسمائها. الطاغية، طاغية، والإعلام الراهن خلاعة، وبيانات الجبهات، حفلة تعرٍّ، والبيان الأول، تقبيل أحذية على امتداد آلاف الكيلومترات. عروبة مفبركة ومصنّعة، خَبُرَ نواياها وأهدافها وتطلعاتها، عروبة لا علاقة لها بأول الامتداد، وحقيقة بهاء وروعة المضمون.

عِيبَ على الماغوط، أنه ظل يتنفس في ظل نظام متورط في الدرجة القصوى من القمع، وإدخال الحرية ضمن ملكية الحزب. يخصص ويوزع كميتها من خلال كوبونات قابلة للدفع في المؤسسات الحزبية ومراكز تموينه، ومراكز السحل؛ ما جعله عرضة لانتقاد القريبين منه، قبل المترصدين له. أعمال عديدة اشتغل عليها الماغوط، ممعنة في حساسيتها، وكمية التعرية فيها؛ ما رأى فيها كثيرون واجهة أو متنفساً لا يعبّر عن الحرية أو هامشها في ظل نظام لا يؤمن إلا بحريته في اتخاذ ما يراه مناسباً لـ «قطيع» يحكمه؛ بل كان يعبّر عن حاجة ذلك النظام إلى من يتصدى لحال من ضخ تأويل وتبريرات وتزويق لكل ما يرتكبه من فظاعات، وبعدها فليقل الفن والنص ما يريدان قوله، وسيفعل النظام ما يريد فعله.

حطّ رحاله في الإمارات العربية المتحدة بداية الثمانينيات من القرن الماضي، رئيساً للقسم الثقافي بصحيفة «الخليج» التي تصدر من إمارة الشارقة. كنا وقتها ثلة ممن كانت أجسادهم النحيلة تنوء بأحلامهم: أحمد راشد ثاني، خالد بدر عبيد، أمينة بوشهاب، جعفر الجمري، وآخرين. كان رضاه وقناعاته بالنصوص المحلية وقتها ضرباً من الوهم، وأضغاث أحلام، وحدث ما حدث في قصته الشهيرة معي يوم أن عمد إلى إلقاء نصي الأول- بعد كبوات – في المكان الطبيعي واللائق به: «الزبالة»!

لم أخفِ حقدي وغيظي عليه، ولكنني لم أترك الأمر يمضي كما تشتهيه ظروف سذاجتي وقتها، وظروف هيبته وبهائه اللذين ظلا كما هما لم يمسسهما سوء.

صار الانكباب على القراءة، والسهر، أدوات لكسر قناعة الماغوط التي كثيراً ما كانت مرتجلة ونمطية تجاه النصوص المحلية، لنجد أنفسنا بعد شهور طويلة نحتل الصفحات الأولى للملحق الثقافي المتميز الذي ترك أثره وصداه على المستويين الإقليمي والعربي، وظل مساحة جذب واستقطاب كتابات وأصوات عربية ظلت لفترة من الوقت تتعامل مع صحافة ومنابر دول الخليج العربية بشيء من التحفظ، سرعان ما تم التخلص من جزء كبير منه.

×××

لا يوجد مصطلح غائم وزئبقي ومتلون مثل مصطلح العروبة... فتارة هي عروبة دكاكين الأحزاب التي تجاوز الدهر منطقها وخطابها، وتارة ثانية، عروبة أنظمة متأمركة من الرأس حتى أخمص القدم، وتارة ثالثة، عروبة نخبة مازالت هائمة وتائهة في مساحات شاسعة من الحنين المَرَضي، وتارة رابعة، عروبة جنرالات في أزياء إيف سان لوران، وفيرشاسي، يستدعون كل مخزون وتراث القمع الذي

أسس له جنرالات بعمائم وجلابيب، وتارة خامسة، عروبة سماسرة يزكّون أموالهم بيد، وينهبون الأمة بيد أخرى، وتارة سادسة، عروبة مثقفين أبسط الملاحظات عليهم أنهم ينظرون بعينين: عين ساخطة على السلطة، وعين أخرى على السلطة نفسها، ورحم الله شعوباً شاء القدر والتاريخ والمصادفة أن يكونوا تحت رحمتهم!

٤ أبريل ٢٠٠٦

يتأخر النص فتشعر بنهاية العالم

ثمة شعراء يملكون طاقة ساحرة. ينتشلونك من وهْدة الصوم عن كتابة الشعر. تقرؤهم فتجد نفسك ممسوساً بشيء ما تسرّب إلى «جوانيتك». ليس بالضرورة أن تكتب. ربما بانتقالات نحو مساحات أخرى ليس بالضرورة أن تكون الكتابة إحداها. قد يكون تمركزاً في مساحات من التأمل والقراءة المغايرة. التأمل في الوجوه والوجود والأشياء والحياة عموماً. وقراءة كل ذلك بنَفَس شبه ملحمي ليس بالضرورة – وللمرة الثانية – أن يؤتي أكله في هيئة نص تنتصر به على رتابة «صمتك» و«صومك» عن الكتابة/ النص. وثمة شعراء هم على النقيض من ذلك، لا يزيدونك «حبة من خردل»؛ بل على العكس من ذلك. ربما يتسرّب إليك شيء من الفراغ الهائل الذي تتحرك فيه نصوصهم. شيء من البريّات المخنوقة والمحاصرة المنفّرة لوجود – عدا تكاثر المخلوقات فيها – من بين أولئك الشعراء يبرز الشاعر اللبناني عباس بيضون. هو شاعر كبير ومهم في المشهد الشعري العربي المعاصر، ولكنني وخلال أكثر من عقدين من متابعتي وقراءتي له لم أستطع، كما لم يستطع هو إخراجي من تلك المساحة المفزعة والمرعبة التي يمر بها كثير من الشعراء: الإحساس بنهاية العالم حين يتأخر النص عن المجيء، أو حين يحتبس دمه في دمك، فلا تكاد ترى أو تسمع. لا تكاد تشعر بكل هذا التموّج الدائم في حركة الحياة. لا شيء سوى الركامات والأمكنة المهجورة والشواهد العاجزة عن تقديم القاطنين تحت ترابها كما يجب.

عربياً، ستة شعراء هم في الصميم من موهبة استدراجي للخروج على حال «الصمت» و«الصيام» – على الأقل ضمن تجربتي في التعاطي مع مشروعهم الشعري – : أدونيس، محمود درويش، محمد علي شمس الدين، مريد البرغوثي، قاسم حدّاد، وأخيراً تميم البرغوثي.

ستة شعراء يتركون موائدهم تحت الضوء. ضوئهم... تنزلق من عتمتك باتجاه هذا الاحتفاء المهيب بالحياة، لأن النص الكفؤ والجدير هو بمعنى من المعاني ضلوع نبيل في الاحتفاء بالحياة وأشيائها. ليس ذلك فحسب، إنه تخريب ضروري للمسلّمات... دفق من الأسئلة الشائكة... المعقدة، وأحياناً البديهية في وجه تسليم شمولي لإجابات أنتجتها «التابوهات» سعياً وراء تسوير الأفق!

×××

هناك من يذهب إلى النص مثل ذهابه إلى حفل استقبال، وما يميزه هو الدعوة فقط! وهناك من يذهب إليه بنيّة وواقع تخريبه... تخريب البلادة والسماجة والمساحيق فيه. وهناك من يذهب إليه بسيطاً وبعفوية بالغة فيكون هو نجم الحفل وسيده. وهناك من يذهب إليه مسلّحاً باكتناز معرفي يتقاطع في كثير من الأحيان مع التقاط اللحظة الشعرية في ذلك الحفل فيحيله إلى كتل من ظلام. وهناك من يذهب إليه من دون دعوة، يركل الباب بقدمه... يتجاهل الأيدي الممدودة لمصافحته، وسيكون كريماً ودمثاً إن لم يبصق عليها. يبدأ بتخريب برنامج الحفل. فقط بتعليقه الأسئلة في سماء المكان، بعد أن يتأكد من أن الثريات والمصابيح قد هوت على الأرض. يضيء بأسئلته المعتم من المكان. يترك الحفل وقد عقد العزم على تكرار التجربة في اليوم الذي يليه.

×××

هل صحيح أن كل الشعر العربي اليوم هو شعر مصالحة مع الواقع والأشياء والأنظمة؟ بحسب ما جاء على لسان أدونيس في لقائه الأخير مع برنامج «روافد» في جزئه الثالث، الذي يعده الزميل أحمد الزين؟ هل ثمة فعلاً غياب لمساحة الأسئلة والمساءلة فيه من دون استثناء؟ هل الشعر وحده المعنيّ بهكذا توصيف

وتقرير؟ على رغم أن أدونيس عرّج على الثقافة باعتبارها العنوان العريض والجامع والمضمون القائم اليوم بتورطها في حال المصالحة تلك، إلا أن تغييباً لمفهوم وواقع تصالح الشعر مع الحياة نفسها قد تم! الحياة ضمن مسارات يختطها كل واحد منا بهدف التأكد من أن مشروعه الضروري للدفاع عن المضيء ضد المعتم، المتحرك ضد الثابت... حق الخيار ضد شهوة الانتهاك... وفي المحصلة، الدفاع الأخير عن الحياة وأشيائها.

الخطوط الحمراء التي تكررت على لسان أدونيس، لاتزول إلا بالدفاع عن الوردة قبالة شهوة المعدن وسطوته... عن الطبيعة في عزلتها خروجاً على الإضافي وغير المرئي من الفضاء... انتزاع صفة الهامش ومحو واقعه عن الشعر ليأخذ مكانه الأصيل في متن الثقافة العربية المصابة بوحشة الأسمنت وموهبة الردم.

لا تنتظروا عُروة بن الورد!

انتهى عصر الصعاليك. على الفقراء ألاّ ينتظروا عُروة بن الورد وأحفاده؛ كي يكفوهم مؤونة «سؤال الناس إلحافاً» ومد أيديهم في البادية والحاضرة العربية. اللصوص في الصدارة من المراكز؛ بل باتوا يشكّلون جزءاً من مرجعيات السياسة اليوم. هم في الصفوف الأولى التي تقدّمِهم باعتبارهم جزءاً من أعمدة رعاية الأمة!

أحاول أن أفهم كيف يمكن للصوص في الأمة أن يراعوا مصالحها؟ تلك معادلة بحاجة إلى عقلية بحجم صاحب «النظرية النسبية»، المغفور له بإذن الله تعالى، ألبرت آينشتاين!

الأمة التي تترك لصوصها ينعمون بالأمان من المساءلة تؤسس لولادة لصوص وتناسلهم. والنتيجة: كل مقدّرات الأمة وثرواتها بمثابة «لقيا»، ومال سائب لا صاحب له.

مادمت تملك الغطاء والمتاريس، فستمعن في مد يدك إلى ما لا تملكه. وتحت مظلة ذلك الغطاء، وفي ظل التحصن بتلك المتاريس، يصبح ما لا تملكه مع مرور الوقت حقاً طبيعيّاً لك، لا يجرؤ أحد على مناقشتك في مشروعيته.

آلاف الوحدات الإسكانية كان يمكن لها أن تُشيّد بمئات الملايين التي تبخرت، وعملت على زيادة السمنة في رصيد أحدهم من عمليات لم تعد تتحمّل التقيّة في اللغة بإطلاق مسمّى رشا عليها. هي سرقات وسطو في رابعة النهار، وعلى مرأى من أمّة لا إله إلا الله. سرقات وسطو بتوافر الغطاء والمتاريس، بوجود الأمان من المساءلة. و«الكَتَبَة» الذين خرست ألسنتهم أمام أكبر عملية سطو في تاريخ هذا الجزء من العالم منتفعون - بشكل أو آخر - من تحوُّل مقدّرات الأمة وثرواتها

إلى «لقيا»، ومال سائب لا صاحب له.

مصارف مركزية تتعافى اقتصادات دولها بوديعة بهذا الحجم. أقول الاقتصاد بكل تفرعاته وتعقيداته.

لو تقلّص عدد اللصوص الذين يمارسون السياسة في العالم العربي إلى ١٠ في المئة سنوياً لأصبح نمو ناتجه الأعلى في العالم!

٤ تريليونات دولار تدفع على شكل رشا، وتحت مسمى عمولات على مستوى العالم بحسب تقرير منظمة الشفافية الدولية. نصيبنا منها يعادل أكثر من الثلث. ذلك الثلث قادر على تغيير الوجه الكالح لهذا الجزء من العالم على أكثر من مستوى: التعليم، الصحة، مراكز البحوث، الصناعات، الإسكان والبنى التحتية. ومتى ما توافر ذلك يصعب عندها الحديث عن أمة مهزومة، مستَلَبة، تابعة، مرتَهَنة، خانعة وعرضة للاختراق. الاختراق يحدث حين يرتع الفساد في بيئة توفر له كل أسباب الامتداد والتجذر، بحيث يصبح عُرفاً، وحين يصبح عُرفاً فمن الطبيعي ألا تُؤاخذ عليه. لحظتها تمسون وتصبحون على أكثر من هزيمة، واستلاب، وتبعية، وارتهان، وخنوع، واختراق!

×××

المُخَطِّط للسرقة، والعاملون على تنفيذها بشكل مباشر، والسائق الذي يقلُّ المجموعة، وذلك الذي يراقب الطريق، جميعهم - من الطبيعي - مساءلون أمام القانون، ولكن ما يحدث في أجزاء من هذا العالم أن أول من يُفعّل عليه القانون هو السائق والذي يراقب الطريق، فيما الآخرون بمنأى عن «الشبهة» عدا الحديث عن المساءلة!

×××

جميع اللصوص في العالم – أعني اللصوص من فئة النجوم الخمس – يعانون من حالات «ارتدادية». ارتداد إلى عالم ما قبل تشكُّل المجتمعات. ما قبل تشكُّل النظم والقوانين والدولة. لا يغرنّك حظهم في التعليم، ونمط العيش الذي يحيونه، من سيارات فارهة، ووسائل اتصال ضمن آخر صرعاتها، وحفظهم الإتيكيت عن ظهر قلب أو «بطنه». كل ذلك لا ينفي عنهم انشدادهم إلى ذلك الارتداد ضمن سلوك يرى كل ما في يد الغير ملكاً لهم، وحقاً طبيعيّاً هم أوْلى به، ماداموا يملكون القوّة والسطوة والإمكانات التي توصلهم إلى غايتهم، تماماً كما يحدث في عالم الغاب، في عالم ما قبل تشكُّل المجتمعات البشرية.

×××

كما انتهى عصر الصعاليك. انتهى أيضاً عصر اللصوص الظرفاء! لصوص هذا العصر لديهم قدرة عجيبة على النسيان، والنوم، وتقبيل أطفالهم في الصباح، وتحية الجيران، وارتياد مآتم العزاء، والمشاركة في الأفراح، وعيادة المرضى كأنّ العالم بخير لأنهم ينعمون بما سطوا عليه. انتهى عصر اللصوص الظرفاء. ثم إنني لا أؤمن بلص ظريف، وآخر «ثقيل دم». اللص قاتل من نوع آخر، قاتل ببرود أعصابه في السطو على عرق أمة وشقائها ومستقبلها، وخصوصاً إذا كان سارقاً من فئة خمس نجوم! ثم إن السرقة عموماً لا ظُرْفَ فيها!

١ أبريل ٢٠٠٨

أسوار عزْل ذوي القربى!

كتبتُ عن ذهنية العزل منذ جدار عزل المالكية، الذي وُضع حدٌّ له بفضل تدخل عاهل البلاد، وأسهبْتُ في مفاصل تاريخية طالت ما قبل نشوء المجتمعات الإنسانية، وصولاً إلى عالم الغابة الحديث، عروجاً على سور الفصل العنصري الذي أقامته «إسرائيل».

عدوى قيام الأسوار في العالم الآخر تنهار وتتداعى، فيما هي عندنا تستفحل. تحولت إلى شهوة من نوع آخر، ربما لأننا مجتمعات مسوّرةٌ بعوامل تتعدّى الجانب المادي للفصل. لم تكتفِ دولٌ عربيةٌ بالفرْجة والصمت ومواراة المواقف تجاه السور العنصري الأطول والأبغض في التاريخ الذي أقامته الحكومة الصهيونية؛ بل زايدت بعض تلك الحكومات في موقف يكشف عن فائض الخذلان والتملُّص بإقامة سور يحاكي به السور البغيض.

غزةُ باعتبارها في ضمائر بعض الأنظمة المسيّرة بـ «الريموت كنترول» الأنظمة المزمنة في إقامتها وسطوتها وخنقها لأنفاس مواطنيها قرابة ثلاثة عقود؛ لأن تلك الأنظمة لا يمكن أن تكتشف الفضاء الذي تتحرك فيه ما لم تعمد إلى خنق فضاءات شعوبها وفضاءات الشعوب اللصيقة بها، في موقف مخزٍ ومؤذٍ ينمُّ عن بيع الجمل بما حمل.

لماذا تعتقد بعض الأنظمة العربية أنها خالدة مخلدة؟ نعم بعضها خالد مخلد بالسخط الفائض عليها لتفريطها وتغاضيها عن الخسف!

السور الذي تزمع إقامته إحدى الدول التي حُيِّدَتْ منذ معاهدة الخذلان التاريخية، يكشف عن حجم المأزق الذي يعانيه النظام. هو سور يظل في نهاية المطاف في مصلحة الدولة الصهيونية؛ لأن نظام الدولة نفسه لم يفكر بإقامة السور

يوم أن كانت حكومة رام الله مسيطرة على القطاع وتحت سطوتها، ما يكشف عن تواطؤ فاضح بين النظام المذكور والدولة العبرية.

الأنفاق التي تريد الدولة المذكورة ردمها على أصحابها، تظل هي شريان الحياة الوحيد لشعب محاصر في أكبر سجن عرفه التاريخ الإنساني، ويراد لذلك الشريان أن يقطع كي يتمكن النظام هناك من تمرير عقود أخرى لتوريث مزيد من السياسات التي ستؤدي بنا في نهاية المطاف إلى تحقيق وهم عتيق بإلقاء «إسرائيل» في البحر، سيرتد علينا هذه المرة لنكون نحن مشروع شحن وإلقاء في أكثر من بحر لن يفيض بنا!

٢٩ ديسمبر ٢٠٠٩

ذهنية التفخيخ

حاجة العالم اليوم تتركز في عقل... ذهنية تتحكم في شكل ودور الآلة، بحيث توجهها نحو مزيد من تأكيد محورية الإنسان في أي تغيير، فيما ذهنية «التفخيخ» والبيانات من وراء حجاب، تعمل اليوم على نقض كل منجز يؤدي إلى تأكيد تلك المحورية.

ذلك يحيلنا إلى «بيان ٥ حزيران ١٩٦٧ » لـ «أدونيس»، والذي نشر في مجلة الآداب اللبنانية: «ولكن... هل استخدم السيارة حقاً، أم أنني أستخدم فرساً من حديد؟»

×××

حفلاء الشواء في الهواء الطلْق

ما تفعله السيارات المفخخة باللحم البشري، يفوق أي تصور... هي بمثابة حفل شواء في الهواء الطلق بالنسبة إلى الإرهابيين... نزهة وعربدة على حساب الآخرين، ثمة تتبّع لحفلات الشواء تلك، ولو من بطون كتب التاريخ:

يُروى أن طاغية أغريغنتم، فلاريس، وهي من أعمال صقلية، وكان طاغيتها نحو العام ٥٦٥ ق.م، كان يشوي السجناء من أعدائه في مملكته بأن يضعهم داخل ثور نحاسي ضخم، ثم يوقد تحته ناراً هادئة، وتوضع قصبتان تشبهان المزمار في منخري الثور بطريقة فنية بارعة، بحيث تتحول أنّات السجناء وصرخاتهم حين تصل إلى أذنيه إلى نغمات وألحان شجية».

يقابل ذلك بيانات الإرهابيين من الفئة الضالة على شبكة الإنترنت التي تبدأ بنشوة وسكرة إصابة أهدافها السقيمة، من دون أن تنسى تلك الفئة أن تبسمل

قبل أن تبدأ مجازرها، تماماً مثلما يفعل بعض اللصوص الذين يبدأون بالبسملة قبل كسر الخزائن وتفريغها من محتواها، وهو نفس ما أشار إليه كورتلين: حتى اللص عندما يضع المفتاح في ثقب الخزانة ليسرق يقول: بسم الله!

×××

في صراع النار والماء

نتعلم من أبي العلاء المعرّي: «إذا غمس القوم أيديهم في الدم، فاغمس يدك في ماء الغدير».

نتعلم من أحدهم وبصورة مغايرة: «قالت أم الدرداء لأحد الخلفاء: بلغني أنك شربت الطلى بعد العبادة والنسك، فقال: أي والله والدماء أيضاً شربتها»!

نتعلم من ألبرت اينشتاين:«العلم من دون دين كيان أعرج، والدين من دون علم عمى».

نتعلم من كلمنصو: «ينبغي ألا تقام التماثيل إلا للأنذال، فالشرفاء يحترزون منها».

نتعلم من مثل إسباني: «في صراع النار والماء، تموت النار دوماً».

نتعلم من فريدريك تيرنر: «لا يوجد شيء أكثر هشاشة من القوة».

فما الذي تتعلمه تلك الفئة الغارقة في ظلاميتها، سوى ما يتعلمه قطاع الطرق، والمفسدون في الأرض، وعصابات السلب والنهب من بعضها بعضاً؟ ما الذي يتعلمه من وقع تحت تأثير المخدّر، سوى أن يعيش نشوته الكاذبة، وتحليقه الساقط،

وهلوساته وسلوكاته التي تمجّها حتى البهائم؟ ما الذي تتعلمه تلك الفئة التي تركت النص، وتكالبت على سقيم الهامش، وعربدات بعض الفهم والجهل الصارخ في التفسير؟ فئة تريد - كذباً وبهتاناً - لشرع الله أن يسود ويحكم، فيما هي تقيم طقوس جاهليتها، وتولّي وجهها شطر أوثان نصبتها، أوثان من لحم ودم، تولّي الأدبار، ناكصة، لتبث وعدها ووعيدها من مغارات وجحور في الطرف القصي من الأرض؟

مورفين التفسير

الأداة وحدها اختلفت... أداة إشاعة الإرهاب، بالأمس كانت سيفاً... خنجراً... سهماً... ووسيلة الوصول دابّة... صارت اليوم سيارة يستقلها إرهابي متحزّم بطوق من المتفجرات. التفكير لم يطرأ عليه أي تغيير... لم يغيّر استخدام شبكة المعلومات لنشر حصيلة «الغنائم» من القتلى والجرحى في ذهنية قتَلَة اليوم ذرّة من قناعة... كأنهم جاؤوا من مجاهل التاريخ، أو من سحيقه... من الأسود، والقاتم، والدامي منه بالتفكير نفسه والتحشيد والتأجيج والأدلجة... بالمورفين ذاته الذي يتعاطونه: مورفين التفسير لنصوص هي بريئة كل البراءة من فهم يشطب عالم ومكان وعقل وإيمان ما عداه، ليبدأ من أول السطر في فرض عالمه، ومكانه، وعقله، وإيمانه هو.

١٠ مارس ٢٠٠٨

التمثيل ومراقبة الحياة

تبرز تساؤلات كثيرة هي في العمق من مراحل تمثيل الدور السينمائي وعلائقه... تساؤلات تصبّ في مجرى ميكانيزم التمثيل الخالص، أول تلك التساؤلات تتعلق بتجسيد الممثل للدور المسند إليه، فيما يبدو انفصالاً عن الواقع؛ إذ يعمد إلى تكثيف المعاني والوظائف والخصوصية والانتماء المرتبط بالشخصية التي يلعب دورها. وحين قلنا «فيما يبدو انفصالاً عن الواقع»، إنما نرمي إلى تأكيد أن واقعاً جديداً بمكانه وزمانه وتفاصيلهما يولدان؛ ما يتيح للممثل ارتباطاً بواقعين: واقع الشخصية التي يلعب دورها وهو ارتباط يصل إلى الذروة لحظة تجسيد الشخصية، وواقعه هو، من حيث تأجيل ارتباطه به وبتفاصيله، ومتى ما تسرب شيء من واقعه هو إلى واقع الشخصية المراد تجسيد دورها يتضح الوهن والإرباك الذي لن يحتاج المشاهد الواعي إلى كبير جهد للقبض عليه في حال تسلل أو تلبّس.

تانسلافسكي وحده الذي نجح في المتناقضات بين الممثل كفنان خلاق والممثل كشخصية، وهو وحده الذي طور تقنية محددة يستطيع الممثل وفقاً لها أن يحول سلوكه السيكولوجي والفيزيولوجي إلى سلوك الشخصية وأن يخلق الحياة الفريدة للشخصية في كل دور.

ولعل الناقد والكاتب المسرحي والأكاديمي المعروف، إبراهيم عبدالله غلوم، أكثر من استطاع أن يقرِّب هذا التوصيف إلى الأذهان وهو يتحدث عن الممثل المسرحي على رغم الفروقات التي يمكن تلمسها لحظة تجسيد أي منهما لدوره ... ففي ورقة بعنوان «تكوين الممثل المسرحي في مجتمعات الخليج العربي» أشار غلوم إلى أن «التمثيل يستقل بعالمه استقلالاً تاماً ويصبح لغة خاصة لا يكون الممثل عبرها خاضعاً لما يمثله النص من حركات ومواقف وتفاصيل مختلفة، كما لا يكون خاضعاً لتفسيرات المخرج وخيالاته واجتهاداته في التجسيد والتمثيل

وإنما يكون مستقلاً بوجوده وبشخصيته».

هنا ثمة إشارة على قدر كبير من الأهمية يمررها غلوم في تناوله لحال «تصميم الواقع الذي يحاكيه الممثل»... وهو تصميم يراد به الدخول العميق في تفاصيل ما يراد تجسيده، مع تسلح واع بالرؤية النقدية التي يتلمس بها طريقه للمعالجات والحلول التي يُتوخى تأكيدها أو حضور جانب منها في العمل الفني.

لا أحد يختلف على أن التمثيل «عمل تخطيطي بالدرجة الأولى». تخطيطي من حيث تعامله مع ما هو موجود وكائن ومعاين، ويأتي على رأس كل ذلك الإنسان بوجوده وفعله والمعاني التي يمكنه أن يبرزها في وجوده وفعله، على أن الأهم في الأمر هو اللحظة الحاسمة التي يستطيع من خلالها الممثل الانسلاخ عما يمثله هو قبل لحظة الدخول في العمل والبدء في شكل وتكوين وعمق نفسي وجسدي وإيمائي تتطلبه الشخصية المراد تجسيدها وتقديمها كنموذج أو حال مكثفة وقوية ربما لا يسهل اختبارها وسبر أغوارها في الحياة اليومية العادية بعيداً عن اشتراطات تلك الصناعة.

ربما تكون السينما العربية لا تحفل بكثير من الشواهد التي يمكننا الركون أو الاستناد إليها في مدى حرص الممثل على انسلاخه من زمنه ومكانه وشخصيته في حال إسناد دور إليه والبدء بالتعايش مع زمان ومكان وتفاصيل الشخصية التي يراد له تجسيدها. فقط يحضرنا أحمد زكي، نور الشريف، فاتن حمامة، وبشكل غير منتظم، يحيى الفخراني. فيما السينما الغربية، والأميركية خصوصاً، عمدت إلى التركيز على الطريقة النفسية أو بمعنى أدق أولتها اهتماماً كبيراً من خلال انطلاق الممثل من «الباطن. من العمل على العواطف... من العلاقات الخاصة مع الشخصية «المخيلة، المشاعر»، لذلك ليس مستغرباً أن يخرج روبرت دي نيرو من دوره في الجزء الثاني من ثلاثية «الأب الروحي» بتجسيد خلاق للشخصية

التي لعبها، ذلك أنه «ذهب إلى صقلية لملاحظة الناس ورصد سلوكهم وطريقتهم في الكلام»، كذلك الأمر في فيلمه «نيويورك نيويورك»؛ إذ تعلم العزف على آلة الساكسفون وأجاد العزف عليها.

تيم روبنز هو الآخر ومن أجل دوره كسجين في فيلم The shawshawk redemption قام بأبحاث وقضى وقتاً في السجن الانفرادي على نحو طوعي.

ثمة مجازفة بجزء من الذات لحظة الشروع في تجسيد شخصية ما تستنزف من صاحبها الشيء الكثير. تأخذه إلى ما يشبه الحدود القصوى من الانفصال الذي يستطيع من خلاله أن يراقب الحياة بعين أخرى وبذات أخرى ومن خلال زاوية نظر أخرى ومن موقع آخر في الحياة، وبذلك يصبح الممثل بموهبته قادراً على مراقبتها – أي الحياة – وإعادة إنتاجها وخلقها.

وبالعودة إلى استنزاف الذات نقف على رؤية دي نيرو في هذا الصدد: «كل شخصية أؤديها تستنزف قدراً كبيراً من ذاتي فيما بعد، ينتابني إحساس بالفقد بأني فقدت شيئاً، وهذا الإحساس لا يزول إلا حين أبدأ في الحفر في الشخصيات التالية».

ويؤكد جيرارد ديبارديو الانطباع ذاته في هذا المجال بالقول: «بالنسبة لنا، جميع الممثلين، المخاطر هي نفسها، لذلك نجازف بجزء من ذواتنا في كل دور. الممثلون يعبّرون عن تلك الانفعالات التي هي مكثفة وقوية جداً قياساً إلى تلك التي نختبرها في الحياة اليومية. لهذا السبب التمثيل شاق جداً. إن له امتيازات كثيرة، لكنه محفوف بالمخاطر، فالانفعالات ليست زائفة، إنها أشياء اختبرها وعاشها المرء في حياته اليومية».

١٣ أبريل ٢٠٠٨

عبلة كامل... نحاول أن نسترجع ذاكرتنا!

سبق أن كتبت: «لأن عبلة كامل لم تُجِدْ لعبة الفستان (القصير)، كان نَفَسُها (طويلاً) ومربكاً ومدهشاً في العديد من الأفلام التي قامت بأدائها. ولأنها لا تجيد تلطيخ وجهها بالألوان، لم يتجرأ أحد على تلطيخ سمعتها، ليس لأنها لا تملك موهبة في الشكل - وذلك صحيح - ولكن لأنها عملت في معظم أدوارها على تلطيخ سمعة الخلاعة في السينما المصرية، برزانة الأداء والالتزام بقيمة الدور».

وعودة إلى عبلة كامل بعد سنوات من تلك الكتابة. ما الذي يحدث لهذه النجمة التي شغلت عواطفنا وأعصابنا بعفويتها وبساطتها؟ فيما هي الآن تذكّرنا ببرميل نفط!

ما الذي يحدث لعبلة كامل؟ هل أصيبت بوباء «العولمة» بحيث ترهّل جسدها كما تترهّل العولمة ذاتها بالامتداد القسري والمسموح؟

لا أحد يمكنه أن يغضّ الطرْف عن بداية هذه النجمة التي راهن كثيرون على أنها ستكون يوماً سيّدة الشاشة العربية خلفاً لفاتن حمامة.

ما الذي حدث؟ هل هو معدّل التضخم في مصر؟! هل هو معدّل البطالة في الشارع المصري؟! هل هي حركة «كفاية»، والإرباك الذي أحدثته في الممارسة السياسية المصرية، بعد عقود من اختطاف الشارع المصري من قبل الحزب الواحد، والرئيس الواحد؛ ما دفع عبلة كامل إلى الذهاب للنقيض من «كفاية» على مستوى «الوزن» و«خفة» الأدوار وتفاهتها!

مجمل أعمالها الأخيرة، حزمة من تهريج وتسطيح واستغفال وضحك على الذقون. مجمل أعمالها رتابة في رتابة. مجمل أعمالها، محاولة يائسة

لتذكّر عبلة كامل بلباسها «الطويل» وأدوارها «القصيرة». مجمل أعمالها درس مملّ وساذج وعبثي في إهدار الوقت والزمن أمام الكاميرا، من دون قيمة تذكر، ومن دون معنى تقدّمه إلى المتحلّقين أمام الشاشات.

الأثاث والديكور والخدم و«العَرَبيات» لا يمكنها أن تحجب «برود» وتفاهة وسطحية الفنان الذي (كان فناناً). موقع التصوير بكل تجهيزاته، وحتى المخرج الفذ لا يمكنهما أن يواروا سوأة الإفلاس، أو على الأقل ملامحه.

وتزاحم النجوم في العمل الواحد ليس بالضرورة أن يخلق فناناً، ويجترح دوراً استثنائياً يعلق في الذاكرة. ربما هذا ماراهنتْ عليه عبلة كامل في أعمالها الأخيرة. لكن أبسط ما يمكن أن يقال في هذا الصدد: «تواريْ كي لا يتم الإساءة إلى أدوارك الأولى، وتجسيدك الملفت. تواريْ قبل أن تصب عليك اللعنات من الآن إلى قيام يوم الدين. لم يعد مقنعاً ما تقومين به من تهريج وتسطيح. حتى فستانك (الطويل) وأدوارك (القصيرة) الأولى نكاد أن ننساها، وما لاحظناه أخيراً أن فستانك بدأ (يقصر)، قصر نفَسِك؛ ما يعني أن بقاءك في ذاكرتنا لن (يطول)».

قلت ذات تفاؤل في كتابة سابقة: «إن عبلة كامل ستخسر في الجولة الأولى وبالضربة القاضية إذا ما تم عقد مقارنة بينها وبين نهلة سلامة والراقصة دينا، ولأن السينما العربية عموماً، والمصرية خصوصاً، تصرّ على أن النَفَسَ (الطويلَ) يكمن في الفستان (القصير)، قلبتْ عبلة كامل تلك المعادلة اللعينة وأصرّتْ على أن يتوازى طول نفَسِها مع طول فستانها، من دون أن يكون الإغراء سيد الموقف. وقليلون هم الذين آمنوا بتلك النظرية الغبية ظاهراً، الممعنة في فطنتها باطناً»!!!

النَفَسُ الطويل في الشاشة المصرية يعني مزيداً من طول وعرض الخلاعة، مع إصرار على أن طول فستان أية ممثلة، دليل على قصر نظرها وأدائها وعمرها الافتراضي على الشاشة، فيما الفستان القصير يرشحها لأن تعمّر طويلاً وإن

اتضح قِصَرُ أدائها!!!

تركنا ذاكرتنا في صقيع هذا المهب من الفوضى والوجوه والوجوم. نسينا ذاكرتنا أمام هذه الخلاعة في استغفال المشاهد. نسينا ذاكرتنا في ظل هذا الاستهلاك المصاب بلوثة «اللحم الأبيض المتوسط» ولكنك خارج التصنيف! فقط نحاول أن نسترجع ذاكرتنا التي سرقت منّا كما سرقت أهرامات مصر في أحد أفلام محمود ياسين!!!

١٢ فبراير ٢٠٠٨

«الميل الأخضر»

يظل الشرق والجنوب مستودع أسرار ومنجم خيال... يظلان واحداً من المرجعيات اللازمة لتقرير مسار كثير من الأساطير والخرافات وحتى مسار ما بعد وما ينتج عنهما على مستوى الوعي وما يتمخض عن ذلك الوعي من تفكير أو إنجاز.

الدراسات والبحوث والمعالجات في هذا المجال لا يمكن إحصاؤها في مقال محكوم بالمساحة أولا وبالتكثيف الذي يتوخاه ثانياً.

في فيلم «The green mile» الذي يؤدي بطولته «توم هانكس»، ثمة معالجة تتكثف ويتم وضعها تحت مجهر وعين: شرقي / جنوبي، مع التأكيد والحرص على فصلهما تماماً عن الوعي الغربي، وفي ظل حرص على استلهام وتوظيف معالجات ضمن تلك المظلتين، يظلان شيطانين سوداوين بأسنان بيضاء لمّاعة وأذرع كأنها الصخر. هكذا هي الصورة النمطية المراد لها أن تكون.

لا تحتاج إلى أن تفتح عينيك بكامل أبعادهما لتقرأ ما يراد توظيفه في هذا الصدد... لا مجال لقراءة وتحليل المشاعر. لا مجال للتفسير لاكتشاف حال من التسامي الناقص والمبتور يسعى إلى إيصاله مخرج الفيلم. ثمة تخمة جاهزة على صعيد صورة نمطية يتم تكريسها في كثير من المعالجات والمواقف، من حيث إن الشرق والجنوب لا يمكن أن يهباك إلا الطيش اللفظي وطيش الممارسة. النسْخ المتكرر لأبطال تبتر أعضاؤهم، ونساء يتخلصن في موقف أسطوري من ضجر الرفاهية. ثمة مراتب تُعَدُّ وكأنها مدانة وتحت سيطرة أكوام من الانفعالات.

الرجل الأسود ذو الشفة الغليظة والعضلات المفتولة يتم سوْقه في مشهد وصورة مهينتين مع إصرار من الحارس الذي يسوقه في الممرات المؤدية إلى حيث

ينتظر تنفيذ حكم إعدامه بعد اتهامه بقتل طفلتين. يردد الحارس في الطريق: رجل سيئ في طريقه إلى الإعدام... يكررها لأكثر من ٨ مرات، والحارس ذاته يتم تنميط سلوكه بحيث لا يعبر عن المدنية التي من المفترض أن ينتمي إليها. مدنية قبول الآخر بغض النظر عن لونه وجنسه... وبغض النظر عما ارتكبه؛ إذ نحن أمام إدانتين في هذا المقام... إدانة رجل أسود تسلط عليه الشاشة وهو يمسك بفتاتين لا تتعديان السادسة من عمرهما، وتتم إدانته والوصول به إلى حيث هو في«The green mile»، وحارس لن تحتاج إلى عظيم جهد كي تكتشف أنه متورط في العميق والخطير من العنصرية. الأول يدان، والثاني يدان لتبرئة الخلل والتجاوزات في الصميم من المدنية التي تنتج مكاناً... ومُدينا لبشريتهم... إدانة معظمهم مسبقاً كونهم لا يمتون إلى اللون وربما إلى اللغة وربما المزاج بصلة... المزاج بمفهومه المرتبط بالمدينية ذاتها، ولا علاقة له بأي مفهوم عقيدي أو ديني، لذلك يصر كاتب السيناريو أولاً والمخرج ثانياً وربما بإيعاز من المنتج ثالثاً على أن يبدو الرجل الأسود مفتول العضلات غير مدرك لحقيقة اسمه، وخصوصاً اسمه الثاني «كوفي»؛ إذ تتكرر لازمة «شراب» وتتكرر معها لازمة ثانية «مع اختلاف في التهجئة» وكلاهما تنمان عن تكريس حال أو صورة نمطية للسذاجة والغباء وربما الضياع على مستوى الهوية، وخصوصاً حين يصر صناع الفيلم على تأكيد جهل وسذاجة ذي العضلات المفتولة.

المخرج لم يغفل قطع الطريق على تفسيرات قد تبرز وتطرأ هنا أو هناك... على سبيل المثال: يقع الحارس العنصري في قبضة «كوفي» ذي العضلات المفتولة بعد أن تم تهريبه من زنزانته وبإيعاز من ضابط العنبر الذي يقع فيه سجناء محكوم عليهم بالإعدام لمداواة زوجة آمر السجن التي تعاني من السرطان بعد أن نجح في شفاء ضابط العنبر الذي كان يعاني من التهاب في المثانة، وفي مشهد لا يخلو من التسطيح والسذاجة (وهي الصورة ذاتها المقررة للشرق والجنوب معاً) يعمد

الرجل إلى سحب الداء عن طريق الفم لتنتشر في الزنزانة أسراب شبيهة بالجراد كتعبير أو رمز لآفة استوطنت الرجل وتخلص منها بفضل الرجل الأسود.

الإيقاع الدرامي يثير حالاً من الانتباه في عدد من المشاهد، وخصوصاً مشهد سجين جديد يفد على الموقع وهو في حال خدر كبير، وهو بذلك يستدرج جموع الحراس الموكولين بإيصاله إلى الموقع، وفور وصوله ينهال عليهم ضرباً في مشهد كرس المغامرة وعنصر المفاجأة وبأسلوب لم يخلوان من السذاجة على رغم تصاعد الإيقاع الدرامي.

الفيلم لم يخل من مساحات شعرية فاتنة على مستوى الحوار والمشاهد، ربما من بينها مشهد شفاء زوجة آمر السجن التي تعاني من السرطان وانتباهتها وتحولها إلى ما قبل المرض في ثوان معدودة... ومعرفتها بسرّين ظل الرجل يكررهما «كوفي» - «مثل الشراب» و«مع اختلاف في التهجئة»... وارتجالها بالقول: رأيتك في الحلم في مكان مظلم... كنا معا... تعانقنا... وكأنه تعبير عن تفاصيل اقترابه من سريرها وهي تكاد تحتضر ليبدأ ينفخ فيها الشفاء. وهنا لابد من الإشارة إلى أن نفخ سر الشفاء «الحياة» تعبير عن الاعتماد على وسائط غيبية لا يؤمن بها الغرب الغارق والمتورط في حال من التجريبي والمادي المفرطين. كما يعبر عن حال عجز ماثل لدى المدنية الغربية أمام الكثير من العلل وحتى المواقف؛ إذ ليس وحده السجين سجيناً؛ بل حتى السجان يبدو سجين ما يجهله وما لا يعرفه.

المساحة الأخرى التي يمكن ملاحظتها في عدد من لقطات الفيلم تتركز في مشهد أحد السجناء الفرنسيين وعلاقته بفأر يظل يشغل حراس السجن بجرأته وتجوله الحر في العنبر، وآخر في مشهد إعدام الرجل إياه (مروّض الفأر الذي كان يحلم أن يدر عليه أموالاً طائلة حين يستغله كنجم في سيرك يتمناه) بعد أن تعمد الشرطي (العنصري) ألا يغمس الإسفنجة التي توضع على المساحة الحليقة من

رأس الرجل المحكوم عليه بالإعدام؛ ما يتسبب في تفحمه في مشهد مروع تجاوز فعل الإعدام نفسه بمراحل.

على أن أكثر المشاهد شعرية ذلك الذي تمتد فيه يد «كوفي» لكي يهب «توم هانكس» جانباً من سره وسحره... بإطلاعه على جانب غيبي يتعلق بظروف مقتل الطفلتين وبشيء من التفاصيل... تتمرأى أمامه المشاهد لتتأكد لـ«هانكس» براءة «كوفي» من مقتلهما ويتم كسر الشعرية تلك باستمرار الحال على ما هو عليه في محاولة لتأكيد حال من الفصل بين الأسطورة /الخرافة وإن تجسدتا، وبين إنفاذ القانون الذي يمثله الرجل الأبيض، وتبدو حال من القطيعة واضحة بين محاولة الفهم ومحاولة التفسير وتوظيفهما معاً لتقرير حال من العدالة والإنصاف بقراءة واقع متحرك وماثل لا يحتاج إلى أسطورة أو خرافة ليتم التمييز فيه بين حزمة كبيرة من النقائض على مستوى علاقات البشر والمؤسسات التي من المفترض أن تضع حداً لحال الجنوح والانحراف والخروج على القانون الذي يؤمّن لتلك العلاقات درجات – وإن لم تكن حاسمة – من التوازن.

يتيح مشهد ما قبل الإعدام تصاعداً في شعرية الحوار واللقطة... الطريق إلى الكرسي الكهربائي... مجموعة الأربعة الذين شهدوا جوانب من إعجاز «كوفي» وتعاطفهم الكبير مع رجل روّض فيهم الكثير من القسوة وهم الذين كانوا يعتقدون بأحقيتهم في القيام بذلك الدور، وخصوصاً مع الدقائق الأولى التي يلج فيها السجين «كوفي» لمنطقة «الميل الأخضر».

مصافحة ما قبل الإعـدام... التردد في إعطاء أوامر تمرير التيار الكهربائي إلى جسده... والعودة إلى الراوي «هانكس» بعد أن شاخ وأدخل إلى مركز لرعاية المسنين وهو برفقة زميلة له في المركز لأحد الأكواخ... ومفاجأة في انتظار المشاهدين... (الفأر) إياه مازال حياً بعد أن عمّر طويلاً بفضل ما تسرّب إليه من

إعجاز وسحر السجين كوفي وهو في قبضته لحظة تنفيذ حكم الإعدام في الرجل الذي تكفل برعايته ومشاركته الزنزانة.

على أنه يجب ألا نغفل الشعرية التي حواها مسمى الفيلم «الميل الأخضر»... ليس كمسمى يحجب صورة السواد التي تلف السجن ونزلاءه وحراسه، وإنما تلك المساحة التي يقطعها السجين - وجلهم من المحكوم عليهم بالإعدام - للوصول إلى حتفه، وكأنها «الميل» مسافةً على رغم أنها لا تتعدى أمتاراً قليلة؛ إذ كل شيء يميل إلى اللون الرمادي، فحتى الأسود يستعصي على الحضور في لحظة ما قبل الوصول إلى الكرسي الكهربائي... الرمادي وحده بما يحمله من سريان كهرباء الموت... سريان لحظة الانفصال عن العالم والضحايا والجلادين والصراخ الأخير والأبدي.

الفيلم يحاول تأكيد أن الأسطورة لم تعد حكراً على الشرق... فالجنوب هو الآخر كان ولايزال قادراً على إنتاج سحر أسطورته الخاصة القادرة على أن تكون مرادفاً لأسطورة الشرق وبقية الجهات.

١٨ نوفمبر ٢٠٠٤

عبدالسيد وحزمة من إهمال السرد

ليس جديداً القول، إن المخرج السينمائي المصري، داوود عبدالسيد يعد واحداً من روّاد تيار الواقعية السحرية، واستطاع منذ فيلمه التسجيلي الأول «وصية رجل حكيم» العام ١٩٧٦ أن يمرر شذرات من ذلك التوجه الذي بدأ تصاعده في السينما العربية عموماً والمصرية؛ وخصوصاً مع بدايات التسعينيات من القرن الماضي.

التوقف وبتأمل أمام أهم انجازات عبدالسيد يكشفان عن وعي كبير كرّسه في الكثير من أعماله من خلال توظيفه وانحيازه لعناصر ثلاثة تكاد تسم أعماله ضمن تيار الواقعية السحرية، الأول يمكن تلمسه في البلاغة البصرية التي تكاد تشكل واحداً من المفاصل المهمة في مجمل أعماله، والثاني في لعبة السرد وتداعيه، والثالث يمكن تلمسه في المفاصل الذهنية. ولا يمكن للعنصر الثالث أن يحضر ويتأتى له بشكل يمكن رصده بمعزل عن العنصرين الأولين: البلاغة البصرية، ولعبة السرد وتداعيه.

في «البحث عن سيد مرزوق» يمكن الوقوف وتلمس البلاغة البصرية بشكل جليّ، مع محاولة إيهام يعمد إليها عبدالسيد بتحطيم عنصري الزمان والمكان فيما الأمر خلاف ذلك.

في الفيلم ثمة لعبة متقنة يُعدُّ لها، ساحتها الحياة... الموت... و(الوجود) باعتبار أن الاثنين وضمن رؤى دينية وفلسفية يلتقيان مع بعضهما، ويظلان وجوداً، فالأخير: الموت، هو الآخر وجود ضمن رؤية دينية بالايمان بأن الموت ليس نهاية مطاف وإنما بدايته لحياة وربما حيوات أخرى.

الفيلم لا يتبجح بوجود قصة، كل ما يقودك إليه عبدالسيد هو الكوابيس

والأحلام وهذيان واع، وحوار ومشاهد تكاد تكون على انقطاع مع الواقعي الذي تكاد تفتقده العاصمةُ المصرية (القاهرة)، ببشرها ومهرجيها وصعاليكها وحاراتها المزدحمة بفسيفساء من التناقضات. ويغلّب المخرج في الفيلم تلك الرؤية الفلسفية العميقة على حساب اقناع ذوي أنصاف البصيرة بوجود فيلم يلعب في الدور بشر غير ممسوسين بتلك الكوابيس والأحلام. ولأن الفيلم رؤية للقاهرة في العام ١٩٩٥؛ إذ هي باعتبارها عاصمة العرب، تكون محط رحال لكوابيسهم وأحلامهم النادرة في ظل وضع عربي كان يتجه نحو تفاقمه وترديه وانحلاله مع سقوط مدن والنذير بسقوط مدن أخرى في توجه إمبريالي ظلت وظيفته ورسالته الكبرى زرع مزيد من تلك الكوابيس واجتثاث مزيد من تلك الأحلام!.

«يوسف» في «البحث عن سيد مرزوق» الذي لعب دوره نور الشريف، جسد الدور والرؤية ببراعة وإنْ لم تخل من تفكيك في بعض مشاهدها، والسبب يكمن في أن شحنة الرؤية تلك كانت أكبر بكثير من إمكانات الشريف. ويكشف ذلك مساحة التمطيط والافتعال في بعض المشاهد والحوار.

لم ينفصل عبدالسيد في كل من: «الصعاليك» بطولة نور الشريف ومحمود عبدالعزيز، و«أرض الأحلام» في العام ١٩٩٣، بطولة فاتن حمامة ويحيى الفخراني، و«سارق الفرح» في العام ١٩٩٥، و«أرض الخوف» بطولة أحمد زكي و«الكيت كات» في العام ١٩٩١ وحتى آخر أفلامه «مواطن ومخبر وحرامي» في العام ١٩٩٩، أقول لم ينفصل عبدالسيد عن موضوعة المفاصل الذهنية والبلاغة البصرية ولعبة السرد وتداعيه، مع تيقن من أنه نزوع وانحياز إلى رؤية كافكا من جهة وسينما سكورسيزي من جهة أخرى.

في فيلم «الكيت كات» الذي يعد واحداً من أفلام تيار السينما الواقعية، ثمة تحطيم لمنطق السرد، وهو تحطيم واع عبر شحنات عالية من السخرية التي يوظفها

عبدالسيد في عدد من المشاهد التي تضج بالمفارقات من جهة ولب الواقعي من جهة أخرى.

في «سارق الفرح» يترك عبدالسيد المشاهد بحسب إمكاناته في البصيرة والبصر لاكتشاف ألا اهتمام بالحبكة الدرامية في رصد واضح للبسطاء والمهمشين من دون افتتان بالميلودرامية. وفي فيلم «أرض الأحلام» ثمة جرعات من الصدمات والإحباطات، ثمة حلم بالسفر لأميركا... ثمة مأزق الوثيقة الضائعة التي يضيع معها وجود ومعنى وهوية الإنسان في بعدها الإنساني الملموس... ثمة سحر يفتن به الفخراني المترفين والغارقين في لعبة الليل وشرطه... ولكنه يعجز عن تحقيقه ولو في أدنى درجاته أمام المهمشين الذين يستحيل ظهورهم في هكذا وصفة من الصدمات والإحباطات، لأنهم موغلون فيهما حد التلاشي والغياب. فعدا الحلم بالهجرة وضياع ما يدل على الوجود لتحقق ذلك السفر، والسحر ضمن نطاقاته الضيقة في حضرة نساء وليالٍ غاية في الفتور، فتور ذات الأرض بأحلامها المؤجلة بل المعطّلة.

يبقى القول، إنه بين كافكا وسكورسيزي والصعاليك ولعبة العواصم والهوية والسحر في الدرجة القصوى من بداهته في ظل تلاشٍ على مستوى الوجود، وكذلك بين حزمة كبيرة من الاحباطات، تحضر الرؤية الفلسفية ويحضر الوجود ضمن بعدين يبدوان متناقضين، ليتأكد انكسار وتهشم منطق السرد في اشتغالات داوود عبدالسيد عبر شحنات عالية من الكوابيس ومحاولة نفخ الروح في حزمة مهملة من الأحلام المؤجلة/المعطلة.

٠٨ أغسطس ٢٠٠٤

«كيت كات» والكوميديا الملونة

كثيرون ممن شاهدوا فيلم «كيت كات»، لم يخفوا إعجابهم الشديد بالكم المتزن والمدروس من الكوميديا «الملونة» - إذا جاز التعبير - في مقابل ما يعرف بالكوميديا «السوداء» التي حواها الفيلم، يضاف إلى ذلك مفاصل كثيرة من حال التناقض في الشخصيات وسلوكاتها المتباينة، وهي سلوكات قادت في نهاية المطاف إلى تفجير تلك الكوميديا، وصدم المشاهد بها، وهي صدمة في تسلسل تلك المفارقات وعدم منطقيتها في أحايين كثيرة؛ إلا أنها معاشة ومدركة وقائمة في جغرافية إنسانية لا يمكن تحديدها، وإن بدت لنا تلك الجغرافيا محددة سلفاً، في حي من أحياء مصر الفقيرة التي كثيراً ما تكون منجماً من البساطة والعفوية والمفارقات وانفتاح الناس على بعضهم بعضاً، بعيداً عن انتماءاتهم الدينية.

ثمة تشخيص ذكي ونفاذ آسر لنفسيات شخصيات الفيلم استطاع المخرج أن يستدرجها لفعل وقول المسكوت عنه، من خلال مواقف زخر بها دور الشخصية المحورية «محمود عبدالعزيز» أو «الشيخ حسني»، الشيخ الأزهري الذي جنح في مسار حياته، وعاشها ببوهيمية لا تقبل التأويل ولا تبعث على الحيرة؛ إلا أنه ظل محتفظاً بلقبه الذي عرف به بوصفه طالباً في الأزهر.

يظل أكثر المشاهد تأثيراً وسحراً ومتاخمة للكوميديا التي أطلقنا عليها صفة «ملونة»، مشهد الشيخ حسني وهو يتحدث عن حلمه بامتلاك دراجة نارية، ولم يكتف بذلك، ليفاجئ سكان الحي الشعبي بمن فيهم جاره المسيحي صاحب الدراجة، بقيادتها على غير هدى وهو الضرير الذي لم يحتج لمن يأخذ بيده لعبور طريق أو الوصول إلى إحدى جلسات الكيف في أمكنة عشوائية قد تكون كراج سيارة مغلقاً.

لقطة الشيخ حسني وهو يقود الدراجة وقد أثار حالاً من الفزع والفوضى آخذاً في طريقه كل ما استطاعه عماه، من أقفاص الفراخ، إلى النسوة اللائي يتكومن في مشهد عبثي كالذي أداه محمود عبدالعزيز، ترمز تلك اللقطة فيما ترمز إلى شيء من تطابق الحال العبثي والعشوائي في الجغرافيا مع واقع حال السلوكات ذاتها والتصرف الذي يبديه الإنسان حيال عدد من المواقف. كما تنفي من جهة أخرى حال العمى لدى الشيخ حسني باقتحامه عالم المبصرين، عالم يتطلب شحذ الحواس كل الحواس ولا يقبل سهوها أو غيابها ولو لمجرد لحظة، إلا أنه يمعن في اقتحام ذلك العالم وإن على غير هدى.

مشهد آخر لا يقل إثارة ومتعة يكاد يكون قريباً من المشهد الذي ذكرناه ولكن بحمولات أكثر عمقاً على مستوى الحوار والأداء، وطبيعة الموقف، مشهد يظهر فيه الشيخ حسني وهو يتطوع ليعبر بشيخ أزهري أحد الشوارع ليكتشف الآخر أنه في ضيافة ضرير سيقوده حتماً مع نهاية المشهد إلى اللامكان، في ترميز يبدو معقولاً، يمكن أن ينطبق على السياسة ومساحة كبيرة من حياتنا وعلاقاتنا الاجتماعية ونحن في غفلة عنها.

كل تلك الرهافة التي تميز بها الشيخ حسني تقودنا إلى علاقته بآلة العود التي يحسن العزف عليها، ويبدو أنها؛ أي الموسيقى، منحته ذلك الفضاء العميق على مستوى السخرية وكذلك على مستوى تعاطيه الجاد مع بعض القضايا، ولتنعكس أيضاً على علاقته مع ابنه الذي يمثل دوره شريف منير، لتتصاعد تلك العلاقة مع أدائهما معا إحدى الأغنيات على متن أحد القوارب، يضاف إلى ذلك تلصصه واستراقه السمع أمام إحدى الشقق التي تقطنها زوجة جاره في المبنى السكني الذي يقيم فيه، وبإحدى حواسه يكتشف تورطها في علاقة مشبوهة مع مروج مخدرات «نجاح الموجي»، غير أن ذروة الكوميديا الملونة تلك تبدأ ملامحها مع

اقتراب نهاية الفيلم في أحد مجالس العزاء فبعد أن ينتهي المقرئ من قراءته ينسى أحدهم إغلاق الميكرفون، ليعمد الشيخ حسني إلى سرد تاريخ أسود على تضاد مع الألوان التي توزعت خلالها الكوميديا، تاريخ يبدأ بالموجز، وينتهي بالتفصيل الذي يصل إلى أسماء الناس في الحي، في ترميز آخر لشياع الفضيحة واعتبارها حقاً كما هو الستر حق.

٢١ سبتمبر ٢٠٠٣

الاجتياح بين الجيوش والشركات العملاقة

المفكر والمؤرخ الانجليزي، أريك هوبسباوم، يرى في كتابه «القرن الجديد ٢٠٠٢» عن مفهوم الدولة «أن النظام الدولي السابق كان يتمتع بقاعدة ذهبية تمنع جيوش أية دولة أجنبية من التدخل أو الدخول في حدود دولة أخرى بحجة حل صراع داخلي أو القضاء على تهديدات مستقبلية متوقعة، ولكن هذه القاعدة الذهبية انهارت وتوقفت عن العمل منذ العام ١٩٨٩».

ما الذي يريد هوبسباوم التوصل إليه؟ بكل بساطة: ألا أحد خارج مرمى تعطيل تلك القاعدة، بما فيها الأنظمة الغارقة في الولاء والممعنة في التنازل والمدمنة على الطاعة. هل أسس ويؤسس مثل ذلك التوجه لقيام مراجعات لطبيعة علاقة الأنظمة تلك مع القوة المهيمنة على أحلام وكوابيس العالم (أميركا)؟ يبدو الأمر متعذراً وإن بدت بعض المشاهد والإرهاصات هنا وهناك تشير إلى ذلك؛ إلا أنها لا تتجاوز حيز المجازفة بـ (جس النبض)؛ وخصوصاً في ظل حزمة من الضغوطات الداخلية وإن ظلت غير ذات تأثير؛ لأنه حتى في حدود جس النبض بات الأمر ضرباً من التهور والرهان الخاسر سيدفع بتاريخية العلاقات إلى طريق مسدود ستمول قيامه أميركا.

ذلك جانب من الصورة. في المقابل ثمة صورة أخرى لاتبدو ظاهرة ومعاينة تتعلق بعمق أطروحة العالم الجديد التي أعدت ورقتها أميركا عبر فتح أسواق العالم وعولمة الديمقراطية. في الأولى ثمة «تهديد لسلامة العالم جرّاء المصالح العنيفة لرأس المال الأميركي وشركات النفط العملاقة» كما يشير أستاذ الفلسفة في جامعة عين شمس في القاهرة، عصام عبدالله، وهو تهديد يتمثل في إقصاء أو مزاحمة المنتج المحلي من جهة، وفرض معايير إنتاجية وقانونية تعمل على خنق ذلك المنتج على مستوى التسويق والمنافسة من جهة أخرى، وفي ذلك (بلطجة

صارخة) على حد تعبير أستاذ الاقتصاد المصري المعروف، جلال أمين. ذلك الطرح لا يخرج عن حدود التوغل في الأسواق للقضاء على «تهديدات اقتصادية مستقبلية»! تزامناً مع التدخل أو الدخول في حدود الدول بحجة حل الصراعات الداخلية أو القضاء على التهديدات المستقبلية. أما فيما يتعلق بعولمة الديمقراطية، فالأمر لا يعدو كونه دعاية سمجة، ذلك أن واقع الحال يشير إلى النقيض من ذلك التوجه؛ إذ إنه وفي تواز واضح بين «لعبة» السياسة و«ميدان» الاقتصاد، تضرب أميركا بالقوانين والشرائع وحتى الالتزامات التي وقعتها وسوّقت لها سلفاً، عرض الحائط؛ إذ تشير إحصاءات في هذا المجال إلى أن حجم التجارة التي تقيمها أميركا مع الدول التي تتهمها وزارة الخارجية الأميركية باستخدام التعذيب بلغ ٤٠٠ مليار دولار، في العام ١٩٩٦، ولاشك في أن الرقم وإن لم يتضاعف إلا أنه لم يتراجع بكل تأكيد بحكم الهيمنة والنفوذ الذي يمكن للشركات العملاقة والمنظمات غير الحكومية أن تمارسه في حال شرعت الإدارة الأميركية في اتخاذ موقف المقاطعة أو تقليص تمثيلها أو وجودها في تلك الدول. والشواهد هنا لا حصر لها. ليس آخرها قائمة «الأربعين» فيما يعرف بقانون «داماتو».

الخلاصة هي: حتى وإن امتنعت الجيوش بكل تجهيزاتها من حاملات طائرات وصواريخ عابرة للقارات وأقمار تجسس، عن التدخل واجتياح الدول، فستتكفل بذلك الدور جيوش من الشركات العملاقة ومتعددة الجنسية التي عملت عملها في تقليص دور وتأثير الدولة القومية على الصراعات في العالم بتسلمها زمام المبادرة في التأثير على مجريات الأحداث والصراعات والأنظمة. وربما يكون ذلك واحداً من الأسباب الرئيسة التي تحول دون تمرد بعض الأنظمة على غرقها في الولاء وإمعانها في التنازل وإدمانها على الطاعة، بحكم أن ثروات لا حصر لها تصب في أرصدتها بفتح الأبواب لدخول تلك الشركات وتدخلها في السياسات الاقتصادية وغير الاقتصادية لعدد لا حصر له من الدول!

هل نحن فعلاً إزاء حال من تراجع دور الدولة القومية وعن طيب خاطر كما يبدو لصالح قائمة لا تتجاوز ٣٠٠٠ شركة متعددة الجنسية تتحكم في سياسات واقتصادات هذا الكوكب ورعاياه؟ يبدو ذلك قائماً في ظل تعطيل عدد لا بأس به من القواعد الذهبية في حقبة تشهد عدداً من التراجعات على مستوى القانون والأخلاق!

٢ أكتوبر ٢٠٠٢

مصيدة اتفاق التجارة الحرة

الاقتراح الذي تقدم به الرئيس الأميركي، جورج دبليو بوش، في خطاب له في ٩ مايو / أيار ٢٠٠٣ بإقامة منطقة تجارة حرة أميركية – شرق أوسطية، والتي تقضي بتخفيض الحواجز والرسوم الجمركية على التجارة بين الولايات المتحدة ودول المنطقة تدريجياً خلال فترة زمنية تلغى بعدها الضرائب والرسوم الجمركية تماماً وقدرها عشر سنوات وذلك بهدف دعم علاقات التجارة والاستثمار بين الجانبين. مثل ذلك الاقتراح (والذي لن يكون كذلك) يعني إلزام تلك الدول بالتمهيد لقيام تلك السوق في ظل عدم التكافؤ بين الاقتصاد الأميركي واقتصادات الدول في المنطقة؛ ما يعني أن الجانب الأكبر والمهم من محصلات تلك المشاركة سيحصل عليها الطرف القوي، عدا الاشتراطات التي وضعتها الولايات المتحدة لفتح أسواقها أمام المنتجات العربية سواء تلك المتعلقة بالمواصفات أو توافر شهادات المنشأ، إضافة إلى الجودة العالية. من دون أن ننسى الاشتراط الذي يعمق من حال عدم الاستقلالية في القرار وتجاوز الثوابت، ولن يكون الأردن أول الدول التي تم الاشتراط عليه وفي إطار اتفاق التجارة الحرة بينه وبين الولايات المتحدة، بألا تقل نسبة المكون الصهيوني في منتجاته المصدرة إلى أميركا عن ٣٠ في المئة.

لم ينس نائب السفير الأميركي السابق في مملكة البحرين، روبرت فورد، في ندوته بملتقى الشباب البحريني، إيراد أرقام تتعلق بأداء الاقتصادين المكسيكي والأردني في معرض حديثه عن ضرورة إبرام اتفاقات للتجارة الحرة، مشيراً إلى أن دخل الفرد في المكسيك ارتفع بعد قيام المنطقة بين بلاده وكندا والمكسيك (النافتا) بعد أن كان ٢٨٠٠ دولار سنوياً ليصل إلى ٧٠٠٠ دولار خلال ١١- ١٢ عاماً، متناسياً أن المنطقة تلك لم تسفر سوى عن ارتفاع نسبة الفقر وازدياد

التفاوت في توزيع الدخول في المكسيك؛ فضلاً عن العصف بالتشريعات العمالية الرامية إلى حماية حقوق العمال والإطاحة بالتشريعات الهادفة إلى صيانة البيئة، بدعوى أن إعفاء المستثمرين في المناطق الحرة من هذه التشريعات يشجعهم على توسيع نشاطاتهم فيها.

عدد من الدوائر الاقتصادية الأميركية يشير إلى أنه بحلول العام ٢٠٢٠ سيصبح الاقتصاد الصيني هو الأكبر في العالم، وبالتالي ستكتسح السلع الصينية الأسواق العالمية والأميركية، ولهذا جاء الرد بإقامة مناطق حرة مشتركة مع مختلف الدول، وخصوصاً في المناطق التي تتميز بتوافر الأيدي العاملة الماهرة ذات الكلفة الرخيصة.

من جهة أخرى قد يكون صحيحاً أن الصادرات الأردنية قبل اتفاق التجارة الحرة لم تتجاوز ١٥ مليون دولار سنوياً، في حين وصلت الآن إلى ٤٠٠ مليون دولار، ووفرت أكثر من ٤٠٠٠٠ فرصة عمل في السوق الأردنية على حد زعم فورد، لكن في المقابل لم ينف نائب السفير معاناة الاقتصاد الأردني من أزمات حقيقية وكبرى، يرجع بعض المحللين غالبيتها إلى الشروط الأميركية التي وضعتها ضمانة لضرورة وجود مكونات صهيونية في السلع بنسبة ٣٠ في المئة؛ ما يسهم مساهمة مباشرة في التخفيف من عبء الأزمات التي يعاني منها الاقتصاد الإسرائيلي في ظل الاستنزاف الذي تمارسه الانتفاضة الفلسطينية.

٧ أغسطس ٢٠٠٣

صدر للكاتب:

جغرافية الفردوس (شعر – ١٩٨٨)

شئ من السهو في رئتي (شعر – ١٩٩٢)

صفة لليل عابر (شعر – ٢٠٠٦)

إصدارات «الوسط»
٢٠١١